

آخر الدنيا

يوسف إدريس

آخر الدنيا



مطبوعات مكتبة مصر

آخر الدنيا

تأليف

يوسف إدريس

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

لعبة البيت

شب سامح على أطراف أصابعه ونط ودق الجرس . وسمع صوتا طويلا ممدودا يقول : مين؟ فاحتار وخاف وسكت .

وفتح الباب ،ووقفت على عتبته سيدة ضخمة مهيبة ترتدى قميص نوم خفيفا جدا ، لونه اصفر باهت كقشر الليمون . ووجم سامح وكاد يجرى ، ولكنه تماسك وعرف أن التى فتحت هى أم فاتن ، رغم وجهها الخالى من المساحيق ..

وقبل أن يحدث أى شىء ابتسمت له السيدة ابتسامة كبيرة ، وانحنت ناحيته وقالت :

ـــ يه .. هو انت يا حبيبى ؟!.. أنا رخرة قلت مين اللى بيضرب الجرس ده ومالوش خيال .. عايز إيه يا حبيبى ؟ عايز الهون .. ماما بتعمل كفته ؟

و لم يجب سامح فى الحال .. مد بصره من خلال وقفة الأم العريضة وقميصها الشفاف وما بقى فى الباب من فراغ ، محاولا أن يرى فاتن .. ولكنه لم يجد لها أثرا ، لا فى الصالة ولا فى الحجرة القريبة المواربة الباب ، ولا بجوار الراديو تعبث بمفاتيحه ..

وقال بجرأة منقطعة :

ــ عايز .. عايز فاتن تلعب معايا ..

وضحكت الأم ، وانحنت وقبلته وقالت :

ــ كده ؟. طيب حاضر يا حبيبى ..

وانبسط سامح ، وانبسط أكثر حين التفتت إلى الخلف ونادت :

ــ فاتن . سيبى الغسيل أحسن تبلى هدومك .. وتعالى .. تعالى علشان تلعبى مع ابن أم سامح ..

ثم التفتت إلى سامح قائلة :

ــ بس اوع تزعلها يا حبيبى .. لحسن مخليهاش تلعب معاك بعد كده أبدا ..

وقال سامح بحماس وعيون صغيرة ذكية تبرق :

ــ إن زعلتها يا تانت ما تخليهاش تلعب معايا تانى ..

فقالت أم فاتن وهى تتركه وتستدير :

ــ وما تنساش تسلم لى على مامتك وتقول لها ما بتزرناش ليه ؟.

ثم دخلت السيدة إلى الحمام وهى تهتز وتترجرج ..

ووقف سامح يترقب ظهور فاتن ويتأمل الصالة ، كان فيها طرابيزة سفرة مثل صالتهم ، غير أن كراسيها قديمة موضوعة فوق الطرابيزة . وكان هناك كرسى غريب الشكل مسنده عال جدا يحتاج إلى سلم للصعود عليه ، والكرسى ترقد فوقه قطة ذات ألوان جميلة : ملفوفة على نفسها ونعسانة . وظهرت فاتن فجأة وكأنما خرجت من تحت الأرض ، ترتدى فستانها الأبيض القصير الذى يرتفع ذيله عن الركبة ،

وتوجهت إلى التسريحة الموضوعة فى الصالة وانحشرت بينها وبين الحائط ، ثم أخرجت سبتا صغيرا مثل الأسبتة التى يباع فيها حب العزيز غير أنه مصنوع من البوص ، وعلقت السبت فى يدها واتجهت إلى الباب حيث يقف سامح ، وابتسم لها سامح وسار فى اتجاه السلم ، وتبعته فاتن .

وفى منتصف السلم قال لها فجأة :

ـــ إن كنت جدعة امسكينى قبل ما اوصل باب شقتنا .

وجرى أمامها فوق الدرجات ، ولكنه حين لم يسمعها تجرى خلفه توقف وقال :

ـــ إخيه عليكى .. مش قادره تجرى ورايا يا خايبه ..

فقالت وفى ملامحها ثبات وتأفف ورزانة :

ـــ أنا محبش الجرى ده ..

وتضايق سامح قليلا من تأففها ، ووقف ينتظرها وهو معلق بدرابزين السلم ونصفه خارج عنه ..

ودخلا الشقة من بابها المفتوح ، وتأكد سامح أن أمه مشغولة فى المطبخ إذ كانت لا ترحب أبدا بإحضاره فاتن ليلعب معها .. وعبر سامح الصالة وفاتن وراءه وعيناها لا تغادران السبت المعلق فى يدها .

وأصبحا فى الحجرة الداخلية ذات السرير الحديدى القديم والدولاب والكنبة .

وقال سامح وهو يهلل ويشير إلى ما تحت السرير :

ــ أهو ده بيتنا .. أهو ده بيتنا .. يالله بقى نعمل بيت ..

ورفع داير السرير الأبيض الذى يحيط به من كل الجهات ودخل تحت السرير ودخلت فاتن وراءه.. وبينما بقيت هى على رزانتها بدأ سامح يصنع زيطة كبيرة ويصرخ ويدور بها ويهلل ، ثم أخذها إلى ركن السرير الداخلى حيث صندوق الشاى القديم الذى يحتوى على كل ممتلكاته وألعابه الخاصة .. مجموعة كبيرة من علب السجائر الفارغة ، وأغطية الكازوزة ، وأرجل كراسى مصنوعة بالمخرطة ، وعلب تونة وسالمون بمفاتيحها ، وقطع صغيرة كثيرة من أقمشة جديدة متعددة الألوان سرقها من درج ماكينة الخياطة ، وجر الصندوق وأخذ يستخرج محتوياته ويفرج فاتن عليها .. وبدأت الرزانة تغادر فاتن فجلست على الأرض وتربعت ، وأخذت تخرج من (سبتها) لعبها هى الأخرى وممتلكاتها وتفرجه عليها ..

وفى هذه المرة أيضا أعجب سامح بالحلة الألومنيوم الصغيرة ، والوابور البريموس الصغير ، وطرابيزة المطبخ التى فى حجم علبة الكبريت ، واستكثر على فاتن أن تكون هى مالكة هذه اللعب الجميلة كلها .. ثم انتابته الخفة والحماسة فقام وأخذ ثلاثة ألواح خشبية كانت ساقطة من « الملة » القديمة ، ومضى يضعها على حدها ويقسم بها ما تحت السرير إلى أقسام وهو يقول :

ــ دى أوضة السفرة .. ودى أوضة النوم .. وده المطبخ .

وبدأت فاتن تنقل أشياءها إلى المطبخ ، ووضعت الطرابيزة فى ركن

ووضعت فوقها الوابور ، ثم وضعت الحلة فوقه وقالت :

ــ احنا تأخرنا قوى .. نطبخ ايه النهارده ؟!

فقال سامح فى حماس :

ــ نطبخ رز .. يالله نطبخ رز ..

وما لبث أن غادر تحت السرير فى الحال وجرى إلى المطبخ حيث ادعى لأمه أنه يبحث عن كرته المفقودة فى الدولاب، وعاد وقبضته الصغيرة مضمومة وموضوعة فى جيب بنطلونه ، وحين أصبح تحت السرير فتحها ووضع محتوياتها من حبات الأرز القليلة فى الحلة ..

وقالت فاتن وهى تتنهد :

ــ انت تروح الشغل وانا أطبخ ..

فقال سامح :

ــ أروح الشغل ازاى ؟

فقالت :

ــ مش انت تروح الشغل .. وأنا اطبخ ؟

فقال :

ــ إاييه .. انتى عايزه تلعبى لوحدك .. يا نطبخ سوا سوا يا بلاش ..

فقالت فاتن :

ــ لا يا سيدى .. هى الرجالة تطبخ ؟.. انت تروح الشغل وانا اطبخ .. يا كده يا بلاش ..

فقال سامح :

ــ دى بواخة منك دى .. عايزه تطبخى لوحدك وتقوليلى روح الشغل ؟. والله مانا رايح ..

واحتقن وجه فاتن غضبا وقالت :

ــ طب هه ..

وأنزلت الحلة من فوق الوابور ووضعتها فى السبت .

فقال سامح بغضب :

ــ هاتى الرز بتاعى .. هو بتاعك ؟

فأخرجت فاتن الحلة .. وقلبتها على الأرض .. وقالت :

ــ رزك اهه .. جك قرف ..

ونشبت خناقة حادة .. وكل يحاول أن يجمع حوائجه ، هذه لى وليست لك .. وشتمته ولعنت أباه ، وغضب سامح ودفعها فسقطت منها العروسة .. وأخيرا جمعت فاتن أشياءها ووضعتها كلها فى السبت الصغير ، وعلقت السبت فى يدها ورفعت داير السرير واختفت .

واغتاظ سامح كثيرا وهو يراقبها ، وتمنى لو يلحقها قبل أن تغادر شقتهم ويضربها .. بنت مثلها صغيرة ومفعوصة تريد أن تمشى عليه كلمتها . دائما تغيظه هكذا كلما لعب معها ، وكل مرة يلعب معها فيها يصمم ألا يعود للعب معها .. فى المرة القادمة سيضربها بالقلم لو فتحت فمها .. ولكن لا .. لن تكون هناك مرة قادمة .. لن يلعب معها أبدا حتى لو أحضرتها أمها ورجته أن يلعب معها .. بنت مفعوصة ذات سن أمامية مكسورة تغضب لأتفه سبب ، وما أسرع ما تعلق سبتها فى يدها

وتتركه .. هى حرة ، وحتى هو ليس فى حاجة إليها ليلعب .. يستطيع أن يلعب وحده ولا الحوجة إليها ..

وهكذا بدأ سامح يحاول أن يلعب لعبة البيت وحده ، فراح يقيم الحواجز الخشبية التى هدمتها الخناقة ، ويكلم نفسه بصوت عال وكأنه يريد أن يقسم نفسه إلى قسمين أو شخصين يلعبان معا ، أحدهما يتكلم والآخر يسمع . ومضى يقول :

— ودى أوضة السفرة ، وده المطبخ .. نطبخ إيه النهارده ؟

وأجاب على نفسه :

— رز .

ولكنه غير رأيه بسرعة وقال :

— لأ .. فاصوليا ..

وفكر أن يذهب ويسرق فاصوليا من المطبخ ، ولكنه لم يجد لديه حماسا كافيا لتنفيذ الفكرة .. كان قد بدأ يدرك أنه يضحك على نفسه حين يقسم نفسه قسمين يلعبان مع بعضهما .. وبدأ يتبين أنه يلعب وحده فعلا ، وبدا حينئذ كل شىء ماسخا وقبيحا إلى درجة أنه لم يعد يصدق أن ما تحت السرير بيت كما كان منذ دقائق مضت .. بدأ يرى أن الألواح الخشبية مجرد ألواح ، والدواية التى ينوى استعمالها كوابور مجرد دواية ، وعلبة الورنيش التى كان يسستعملها حلة مجرد علبة ورنيش فارغة. لم يعد ما تحت السرير بيتا ، ولا عادت الألواح الخشبية حجر نوم وجلوس وسفرة .

واغتاظ سامح .. فمن دقائق قليلة وحين كانت فاتن تلعب معه كان يعتقد فعلا أن المطبخ مطبخ ، والصالة صالة ، وحجرة السفرة حجرة سفرة . لماذا حين ذهبت وأصبح وحده بدأ يرى كل شيء سخيفا مختلفا وكأن لعبة البيت لا تنفع إلا إذا لعبها مع الست فاتن ؟

وفى غمرة غيظه غادر ما تحت السرير ، بل غادر الحجرة كلها ، ومضى يلف فى الصالة يبحث لنفسه عن لعبة أخرى يتسلى بها .. وفى درج مكتب أبيه الأخير عثر على حنفية قديمة ، استغرب كيف كانت موجودة طوال هذه المدة فى ذلك المكان ولم يعثر عليها سوى اليوم . أخرج الحنفية ومضى يفتحها ويغلقها وينفخ فيها ، ومضت فى ذهنه فكرة : لماذا لا يستعملانها هو وفاتن فى لعبتهما فيركبها فى رجل السرير ويصنع لها حجرة صغيرة وتكون هى الحمام ؟ ألا يصبح حينئذ كالبيوت الحقيقية ؟ ولكن .. لا .. إنه لن يلعب أبدا معها ، حتى ولو جاءت من تلقاء نفسها وحاولت أن تلعب معه .. سوف يقول لها بكل احتقار :

— جايه هنا ليه يا بارده ؟. روحى ياالله على بيتكم ..

وطبعا هى لا بد قادمة عما قليل ، فهى الأخرى لن تجد أحدا تلعب معه .

وانتظر سامح أن تأتى ، ولكنها لم تأت ، وتذكر حينئذ كيف كانت غلبانة وهى تنحنى وترفع داير السرير والسبت معلق فى يدها .. كانت غلبانة صحيح . لماذا لا يذهب ويرى لعلها واقفة خارج باب شقتهم تنتظر منه أن يذهب ويصالحها ؟ وذهب إلى الباب وفتحه ، وتلفت هنا

وهناك ولكن الطرقة كانت خالية وليس فيها أحد :

ـــ وعاد مغموما إلى الحجرة الداخلية ، واتجه إلى السرير ونظر من الفرجة الكائنة بين الداير الأبيض والمرتبة .. بدا ما تحت السرير واسعا جدا وخرابا ، والألواح الخشبية ولعبه وأشياؤه المبعثرة شكلها كئيب ، وليس هناك أبدا أى أثر لذلك العالم الصغير الذى كان أحب إليه من كل عوالم الكبار وسيماته ومباهجه .

وترك الحجرة متضايقا وظل يدور فى الصالة . وفجأة أحس أنه ضاق ببيتهم كله وأنه يريد الخروج منه والذهاب إلى أى مكان .. وهكذا وجد نفسه واقفا فى الطرقة خارج باب الشقة وحده ، أمه تناديه وهو يكذب ويقول إنه ذاهب ليلعب مع الأولاد فى الحارة .

وفى الطرقة بدأ يفكر .. لا بد أن فاتن ذهبت إلى أمها باكية ، ولا بد أن أمها أخذتها وأغلقت عليها الباب ولن تسمح لها أبدا باللعب معه مرة أخرى . إن أخوف ما يخافه لا بد قد حدث . يا له من غبى سخيف ! لماذا أغضبها ؟ لماذا لم يقل لها : أنا رايح الشغل اهه ، ويصل إلى باب الحجرة مثلا ثم يعود ويقول لها : أنا رجعت م الشغل اهه . لماذا عاندها ؟ وماذا يصنع الآن ؟

وهبط درجات السلم تائها ، محتارا ، مترددا بين أن يهبط ويحاول أن يجد طفلا من أولاد الحارة يلعب معه أسخف لعب ، فهو لا يريد إلا أن يلعب مع فاتن لعبة البيت بالذات ، وفاتن ذهبت إلى أمها ولن تعود أبدا ، أو أن يصعد ويدعى لأمه أنه سخن ومريض . وحتى لم يجد فى نفسه أية

رغبة أو حماس لكى يهبط أو أن يصعد أو يتحرك من مكانه أو أى شيء . كل ما أصبح يتمناه من قلبه وهو يهبط درجة ويتوقف درجات أن تزل قدمه رغما عنه فيسقط ويتدحرج على السلم ويظل رأسه يتخبط بين الدرجات ، وكل خبطة تجرحه وتسيل دماءه .

وحين وصل فى هبوطه إلى باب شقة أم فاتن كان الباب مغلقا ومسدودا وكأن أصحابه سافروا أو عزلوا .. ألقى نظرة واحدة على الباب ولكنها جعلته يحس بالرغبة فى البكاء ، ويسرع بالهبوط ..

وقبل أن ينتهى السلم عند آخر بسطة ، توقف حزينا حائرا ، وكأن شيئا ثمينا جدا قد ضاع منه ، وأخرج رأسه من درابزين السلم وتركه يتدلى فى يأس من حديد الدرابزين .. ومضى يجلس على الأرض ويفرد ساقيه بلا أى اهتمام بملابسه أو بما يلحقها ، ثم يقف فجأة وقد قرر أن يكمل الهبوط ولكنه يجد نفسه قد عاد للجلوس وإدلاء رأسه من حديد الدرابزين . وكلما تذكر أنه لولا عناده لكانت فاتن لا تزال تلعب معه ، وكلما تصور أنه قد حرم اللعب معها إلى الأبد ، تمنى لو مرض فعلا أو مات أو أصبح يتيما من غير أب أو أم .

ولم يصدق عينيه أول الأمر ، ولكنه كان حقيقة هناك — على آخر درجة فى السلم — سبت فاتن الصغير نائما على جنبه والحلة الألومنيوم ساقطة منه .. وهبط السلالم الباقية قفزا ، وتدحرج وعاد يقفز ، وعلى آخر درجة وجد فاتن هناك .. هى بعينيها جالسة ورأسها بين يديها ، وكانت تبكى ودموعها تسيل ، وسبتها الصغير راقد بجوارها والحلة قد

تبعثرت منه .

وأحاطها سامح بذراعيه واحتضنها وراح يطبطب عليها بيديه الصغيرتين ، ويقبلها فى وجهها وشعرها ويقول لها وكأنه يخاطب طفلة أصغر منه بكثير ويصالحها ، وهو فرحان لأنها لم تذهب لأمها ولا اشتكت : معلش معلش معلش ..

وجذبها برفق لينهضها ، ونهضت معه بغير حماس ودموعها لا تزال تتساقط .. دموع حقيقية . وأعاد الحلة إلى السبت وعلقه فى يدها ، ومضى يصعد بها السلم وذراعه حولها ، وهى مستكينة إليه لا تزال تدمع وجسدها ينتفض ، ولكنها لا تقاومه ولا تتوقف عن الصعود .

الشيخ شيخة

بلاد الله واسعة وكثيرة ، وكل بلدة فيها ما يكفيها .. كبار وصغار ، وصبيان وإناث ، أناس وعائلات ، ومسلمون وأقباط ، وملك واسع تنظمه قوانين وتقض مضاجعه قوانين ، وأحيانا يخرج للقاعدة شاذ ، كالحال فى بلدنا الذى ينفرد دون بلاد الله بهذا الكائن الحى الذى يحيا فيه ، والذى لا يمكن وضعه مع أناس بلدنا وخلقها ، ولا يمكن وضعه كذلك مع حيواناتها . وأيضا ليس هو الحلقة المفقودة بينهما .. كائن قائم بذاته لا اسم له ، أحيانا ينادونه بالشيخ محمد وأحيانا بالشيخة فاطمة ، ولكنها أحيان وللسهولة ليس إلا ، فالحقيقة أنه ظل بلا اسم ولا أب ولا أم ، ولا أحد يعرف من أين جاء ولا من أورثه ذلك الجسد المتين البنيان .. أما أن له ملامح بشرية فقد كانت له ملامح ، كانت له عينان وأذنان وأنف ويمشى على ساقين .. ولكن المشكلة أن ملامحه تلك كانت تتخذ أوضاعا غير بشرية بالمرة ، فرقبته مثلا تميل على أحد كتفيه فى وضع أفقى كالنبات حين تدوسه القدم فى صغره فينمو زاحفا على الأرض يحاذيها ، وعيناه دائما عين منهما نصف مغلقة ، وعين مطبقة . ولم يحدث مرة أن ضيق هذه أو وسع تلك .. وذراعاه تسقطان من كتفيه بطريقة تحس معها أنهما لا علاقة لهما ببقية جسده ، كأنهما ذراعا جلباب مغسول ومعلق

ليجف .

وبشعر رأسه القصير الكثيف الخشن كالفرشاة تبدأ مشكلة تسترعى الانتباه .·. فليس فيه علامات أنوثة ، وهو أيضا يخلو من علامات الرجولة ، وجسده ضخم ربع فى سمك الحائط ومتانته ، ولكن وجهه لا يحمل أثرا للحية أو شارب . وكان من الممكن أن يفصل صوته فى نوعه ويضمه إلى دنيا النساء أو الرجال ، ولولا أنه كان لا يتكلم ولا يتحرك إلا إذا أوذى أو تألم ، وحينئذ يخرج منه فحيح رفيع لا تستطيع أن تعرف إن كان فحيح أنثى أم ذكر ، أو حتى فحيح آدمى أصلا ..

وكان نادر المشى ، وإذا مشى سار فى خطوات ضيقة جدا وكأنه مقيد . وهوايته الكبرى أن يقف .. يظل واقفا بجوارك أو أمام دكانك أو فى حوش بيتك كالمذنب بلا ذنب ، ساعات وساعات دون أن يخطر بباله أن يتحرك ، ولا أحد يعرف كيف يأكل أو من أين ، فالطعام إذا قدم إليه رفضه.. والبعض يؤكد أنه يقتات بالحشائش من الغيطان،وأن طعامه المفضل هو البرسيم ، وأنه إذا شرب يشرب كالمواشى من الترعة. ولكنها أقوال ، مجرد أقوال ، ولم تبلغ الجرأة بأحد أن يزعم أنها رؤية عين .

وكائن كهذا لو وجد فى أى مكان آخر لرأى الناس فيه ظاهرة جديرة بالدراسة والأبحاث ، أو على الأقل بنشر صورته فى الجرائد والقيام معه بتحقيقات .. ولكن أهل بلدنا لم يكونوا يرون فيه كائنا شاذا أبدا ، كل ما فى الأمر أنه كائن مختلف . وما دام يحيا بينهم لا يؤذى أحدا ولا يجلب شرا لأحد ، فلا اعتراض لأحد على حياته — وحرام أن يعترضه أحد ،

أو يحملق فيه إنسان ، أو يسخر من وقوفه أو اعوجاج رقبته ساخر ، فهكذا أراد الخالق . وإذا أراد الخالق فلا مناص من إرادته .. وليس على العبد أن يعترض على نظامه حتى إذا شذ النظام .. وكم يشذ النظام حتى ليبدو الكون بلا نظام وكم من مجذوب مهفوف ومشوه ومجنون .. والكل يحيا ولا بد أن يحيا الكل ، ويضمهم ذلك الموكب الرهيب البطىء السائر بهم نحو النهاية حيث لا نهاية ، كل ما فى الأمر أن أهل البلد كانوا يعاملون الشيخ شيخة بنوع خاص من الرهبة ، ليست فيها تلك القدسية الممزوجة بالسخرية التى ينظرون بها إلى المجاذيب والأولياء ، وليست فيها تلك الشفقة الممزوجة بالاشمئزاز التى ينظرون بها إلى المشوهين والمرضى . ربما رهبة النظر إلى شىء مخالف شاذ ، يكشف بشذوذه عن كنه النظام الهائل الذى يلف الكون والناس ، رهبة من النظام أكثر منها رهبة من مخالفة النظام ، كان إذا جاء على قوم جالسين تحاشوا النظر إليه وتعمدوا ألا يجعلوه يحس أنهم شعروا بوجوده . وقد يلقى عليه واحد أو اثنان نظرات عجلى مستطلعة ، ولكن العيون لا تلبث أن ترتد ، والألسنة لا تلبث أن تستمر فيما كانت فيه من حديث ، بصرف النظر عن وقفته غير بعيد عنهم ، وثبوته فى مكانه ثبوت جذع نبت من الأرض فجأة .. وإذا جذب وقوفه الذى يطول انتباه الأطفال والتفوا حوله يتأملونه بلا رهبة أو خشية من معصية الاعتراض ، نهرهم الكبار ، وتطوع واحد بالجرى وراءهم حتى يغيبهم فى شقوق البلدة وحواريها .. والويل لهم إذا فكر أحدهم فى معاكسته أو نغزه بعود قطن ليجعله يصدر ذلك الفحيح

الغامض الرفيع .

وسنين طويلة قضاها الشيخ شيخة فى بلدنا على هذه الحال ، والناس قد أحلوه من كل واجبات الإنسان والحيوان والنبات وتركوا له كل حقوقها . إذا شاء وقف كالنبات وتسمر ، وإذا شاء فح كالحيوان ، وإذا شاء تحرك من تلقاء نفسه كإنسان وإلى أى مكان يريد ، لا يزجره أحد ، ولا يعترض طريقه أحد . ويدخل أى بيت ويظل قابعا فى أى ركن فيه ما شاء من الوقت ، دون أن يضايق وجوده أهل البيت أو حتى يحسوا له وجودا وكأنه يصبح إذا حل .. جزاء من المكان أو الزمان أو الأثير . تتعرى النساء أمامه وكذلك يفعل الرجال ، وتتحدث العائلات عن أخص شئونها فى حضرته ، وينام الرجل مع زوجته أو غير زوجته ، وتدبر أمامه المكائد وتكتب البلاغات ، ويقول الهامس للآخر حين يريد أن يطمئنه كى يفتح له صدره : قول يا أخى قول .. ما تخافش .. هو فيه الا أنا وأنت والشيخ شيخة .. قول .

* * *

كل مافى الأمر أنه هناك بين كل بضع سنين وأخرى تنطلق إشاعة ، خافتة واهنة لا تكاد تصل إلى الألسنة حتى تذوب فوقها وتتبدد .. مرة يقولون إن ثمة علاقة مريبة تربطه بنعسة العرجة ، فهى كثيرا ما تشاهد وهى تبحث بعينيها فى الليل عنه ، وأحيانا تسأل عنه ، وكثيرا ما رؤيت خارجة من الخرابة القريبة من الجامع حيث كان يقضى معظم لياليه . وهى لا بد تعاشره .. فى إشاعة ، وفى إشاعة أخرى يقولون إنه ابنها ،،

وإنه جاء هكذا لأنها حملت به سفاحا من أب فاسد الدم من رجال البندر، حيث كانت تذهب نعسة لتبيع الجبنة واللبن وأحمال الحطب فى الفجر .. ويتردد الناس ألف مرة فى تصديق أيهما ، فنعسة تكاد بطلوع الروح تحسب على جنس النساء ، فهى صلبة العود كالرجال ، جافة الأخذ والرد متينة البنيان ، تدخل العركة وتعور الرجال ، وتخرج سليمة لم يصب جلبابها تقطيع . مات عنها زوجها وهى صغيرة فتحزمت بحزام الكادحين واشتغلت ، وتقلبت فى كثير من الأعمال التى يزاولها النساء ، ولكن طبعها كان إلى الرجال أقرب ، وهو الذى حال بينها وبين الزواج ، وهو الذى جعلها تستقر آخر الأمر فى عملها الذى رشحتها له عضلاتها القوية وعظامها العريضة .. حمالة أحطاب وتبن وطحين وكل ما لا يستطيع وما لا يليق بالرجال أن يحملوه . وكل عدة شغلها (حواية) صنعتها من أثواب بالية وخاطتها حتى أصبحت كالكعكة ، وإذا وضعتها فوق رأسها تستطيع أن تحمل بها حمل جمل ولا تكل ، وتمضى بحملها ثابتة الخطوة مختالة ترج الأرض ، وتحدف عياقة بساقها فيرن خلخالها الذى لم تفرط فيه .. ربما ليظل العلامة الوحيدة على أنوثتها ، تلك التى تلتهم الأحمال الوعرة والعمل الشاق علاماتها واحدة وراء الأخرى .. وعيبها الوحيد أنها كانت إذا مشت فاضية بغير أحمال لا تعرف كيف تمشى ، وتنط كالجرادة ، وتتذبذب خطواتها بين هزات الأنثى ودغرية الذكر ، ومن هنا سموها بالعرجة ، سماها الرجال غيرة ، وسمتها النساء استنكارا ، وسماها الكل ظلما ، أمن فى مثل خشونتها يعاشر الشيخ شيخة ؟ أو حتى

يتصور أحد أنها كانت أما لابن ذات يوم حتى لو كان الابن هو هذا المخلوق ؟..

ولكنهم يؤكدون ويقولون إنها بعد ولادته أخفته فى نفس الخرابة التى يأوى إليها فى كبره ، وظلت ترضعه خفية وترعاه بعيدا عن الأنظار ، ولم يخرج منها إلا وهو كبير بأسنان !

وفى عام يكثر الحديث عن ميوعة النساء وفسادهن ، ويبلغ الأمر بالبعض أن يدعى أن بعض الجائعات والقاطنات فى أطراف البلدة لا يجدن ما يشبعهن فيلجأن إلى الشيخ شيخة وهن ضامنات صمته المطبق ولسانه الذى لن ينطلق .

ومرة سرت قصة تقول إن الشيخ شيخة ليس ابن رجل كبقية الآدميين ولكنه ابن قرد ، وإن إحدى نساء بلدنا اللاتى أعياهن البحث عن الخلف لجأت إلى غجرية فوصفت لها « صوفة » تستعملها . واستعملتها ولحظها السيئ كان فيها نطفة قرد جعلتها تحمل وتلد الشيخ شيخة ، وتفزع منه ساعة ولادته فتعطيه للغجرية وتعطيها نقودا ثمنا لسكوتها ولكفالتها له ، وتأخذ الغجرية المولود وتلف به فى بلاد الله ، ثم تعود به وقد كبر فتتركه عند حافة البلدة وتمضى ..

وفى العام التالى تسرى قصة أخرى ضاحكة لتؤكد العكس . ولتهمس أن الشيخ شيخة ما هو إلا ابن عبده البيطار الذى يقص شعر الحمير ويقلم حوافرها ويركب لها « الحدوات » الحديد ، والذى يشاع ـــ والعهدة على الرواة ـــ أنه من عشاق إناثها ، وبالذات حمارة

الشيخ البليدى المأذون ، وأن الشيخ البليدى هو الذى تخلص من المولود مخافة أن تلصق التهمة به ، أو على الأقل بابنه الذى كانوا يشيعون أنه مصاب بنفس الداء .

أقاويل وقصص وإشاعات هشه وخافتة ومتباعدة ، ولكنها لا تنقطع وكأنما يؤكد بها الناس إصرارهم على محاولة تفسير هذا اللغز الحى ، فلا بد لوجوده بينهم من تفسير وسبب إذ لا بد لكل شىء من سبب ، حتى الشىء غير المعقول لا بد لوجوده من سبب معقول ، ولكنها إشاعات وحكايات لا تفسر ولا توضح .. وبعضها يقال للترويح عن النفس لا غير ..

وكان من الممكن أن يظل الشيخ شيخة يحيا فى بلدنا يمثل شخصية الحاضر الغائب والراكب الماشى والكائن ، غير الكائن لولا أنه ذات ليلة من عام مضى جاء ولد من أولاد العبايدة يجرى من ناحية الجامع ويلهث ، وما كاد يجد الجمع الذى يسهر عند زقاق الطاحونة حتى انهار يجلس بينهم ويرتجف ويكاد يغمى عليه ..

— مالك يا ولد جرى ايه ؟

قال بتهتهة العبايدة وحشرجتهم :

— انتم بالكم إيه !

قالوا :

— إيه ؟

قال :

ــ دا اتبن الشيخ بيسمع وبيتكلم زى البربند ..

ــ ازاى يا ولد ؟ مش معقول .. دا من رابع المستحيل .. عرفت ازاى ؟ .

والولد يقسم برحمة أبيه أنه كان فائتا من ناحية الخرابة فسمع اثنين يتكلمان بصوت منخفض ما لبث أن ارتفع ، فاقترب وإذا به يجد الشيخ شيخة يكلم العرجة ، كلام مضبوط مثل كلام الناس ، و لم يصدق نفسه ، فاقترب أكثر ، ولكن كشت فيه فجرى وجاء يلهث ويرتجف ويروى الحكاية ..

* * *

وطبعا لم يصداقه واحد من الجالسين ولا حتى من الذين سرى لهم الخبر ، كلهم أجمعوا على أن كلام الولد تخريف فى تخريف ، وأنه لا بد قد أرعبته الخرابة فتصور ما تصور ، أو من الجائز جدا أن المتحدثين كانا من الجان .. فهو احتمال أقرب كثيرا من أن يكون الشيخ شيخة يتحدث أو يتكلم أو يعقل الكلام . وهل من المعقول أن يخدعوا فيه كل هذه السنين الطوال ؟ ثم ما فائدة أن يخدعهم وماذا يستفيد ولأى شىء يعذب نفسه ويقف بالساعات وينام كالحيوانات ويحيا كالديدان !

ولكن رغم قوة الحجج واستنكار الناس لصحة أى حرف مما قاله الولد ، فرغما عنهم وبدون قصد راحت نظرتهم إلى الشيخ شيخة كلما رأوه أو تسمر قريبا من أحد مجالسهم .. راحت نظرتهم تختلط بتساؤل شاك بمجرد احتمال ، ولو كان احتمالا غير معقول : ماذا لو كان كلام

الولد صحيحا وكان الشيخ طول عمره يرى ويسمع ويعقل كل ما دار ويدور أمامه ؟

ما إن يطرق التساؤل الرءوس حتى تنتفض رافضة مستشبعة ، فمصيبة كبرى بل فاجعة الفواجع لو صح القول .. هذه السنين التى قضاها يعامل معاملة الكائن المكانى الذى لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ، جعلته يرى من كل قاطن فى القرية أحوالا وأسرارا لم تطلع عليها عين بشر . كل إنسان فى البلدة يحيا كالسفينة جزء منه فوق الماء ظاهر للعيان وجزء تحت الماء لا يراه أحد ، وحتى لو شاهد أقوياء الأبصار ما قرب منه إلى السطح فمن المحال أن يروا الأجزاء الخافية العميقة التى لا يمكن أن تصلها يد أو عين أو أذن .. لا تصلها إلا إذا أخرجها صاحبها فهو وحده العليم بها .. وإذا كان الإنسان كائنا له أسرار ، ومن خواصه كإنسان أن يخفى فى نفسه أجزاء ويحكم إخفاءها ، فكذلك من خواصه الأزلية أنه يخفيها رغما عن نفسه وتحت مقاومته ، ويضطر بين كل حين وحين للإذعان فيخرجها ويظهرها ويتفحصها ربما بعد فوات سنين ، ولكن لا بد أن يخرجها لنفسه مثلا إذا كبتها، أو لأقرب الناس إليه أو أحيانا أبعدهم منه .. ولكن لا بد أن يتوسم فيه القدرة على حفظ سره .. والشيخ شيخة كان يمثل هذا الدور فى أحيان لبعض الناس ، وفى أغلب الأحيان رأى ما لم يره أحد وسمع ما لم يسمعه أحد بحكم أنه لم يكن أحدا ، كان كالحيوان المستأنس .. كقطط البيوت مثلا وكلابها وما أمتع ما رأت قطط البيوت وكلابها . وآه لو تكلمت قطط البيوت وكلابها !

ربما لما استطاع أحد العيش ، فهو لكى يعيش كفرد يضطر لإحاطة نفسه بجلباب وملابس تحفظ جسده وأسراره ، ولكى يعيش كفرد فى مجموعة يضطر لإحاطة بعض نفسه بأسوار .. ويسمى هذا البعض أسراره ، ففيها كيانه وفيها مفاتيحه ونواياه الداخلية التى تفرقه عن الآخرين وتحفظ استقلاله .. والعائلة المكونة من أفراد تضطر لإحاطة نفسها ببيت ذى جدران بالغة السمك ، فيكون لها هى الأخرى كيانها وذاتها واستقلالها .. والبلدة تضطر هى الأخرى لإحاطة نفسها بسور مفترض وحدود وجنسية وكلمة بلدى وبلدياتى لتحفظ كيانها من الضياع والذوبان .

كارثة كبرى لو صح الخبر ، أو حتى لو كانت هناك شبهة فى صحته ، فقد لا يعد هذا هدما لكل الجدران الداخلية التى تحيطهم وتقسمهم ، ولكنه على الأقل فرجة صنعت فى كل جدار . فرجة من الممكن أن ينتقل منها للغير كل ما يحويه الداخل ، فيقوم حينئذ يوم الفوضى الذى هو أفظع وأبشع من يوم القيامة .

بدءوا يرمقون الشيخ شيخة إذن بنظرات مرعوبة حيرى تطوف حوله وحمى الشك تعشيها ، والشيخ شيخة على ما هو عليه .. رقبته مثنية وجلبابه الأزرق ممزق متسخ إذا وقف ظل واقفا ، وإذا جلس لا يتحرك ، وعينه على ربع إغماضها لم تتغير والأخرى على إغلاقها ، وملامحه مثلما رأوها دائما صلبة متجمدة لا تنفك ، وواضح جدا أنها ما انفكت طول عمرها . حتى والشك يدفعهم للدوار حوله واستيقافه ومخاطبته وتوجيه

الأسئلة إليه لا تصدر عنه حركة ولا بارقة انفعال لمحها أحد تطفو على سطح هذه الكتلة المدكوكة من اللحم والعظم والشحم .

وكان أن بدأت الزوابع التى هاجت للخبر تهدأ وتئوب إلى رضا واقتناع ، والرعب الذى اكتسح كلا منهم حين أدرك أنه من الممكن جدا أن تكون فرجة صغيرة قد صنعت فى حائطه ، وامتدت منها عين واعية وعرفت كل ما بداخله . هذا الرعب بدأ يتحول إلى اطمئنان وما صاحبه من شك يتجمد على هيئة يقين ..

* * *

وكاد يصبح لما حدث نفس المصير الذى كانت تلقاه الشائعات لولا حادث آخر وقع . وهذه المرة لم يردده خائف أو ولد ، ولكن رجالا كبارا شهدوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم وكانوا يقسمون على ما يقولون .. ففى ظليلة السعدنى التى تحتل بطن الجسر ويصنع للوافدين عليها القهوة والشاى ويرص المعسل ، كان الحديث يدور يوم السوق عن الحادثة التى رواها ابن العبايدة ، وكان الشيخ شيخة واقفا فى الشمس فوق الجسر لا يتزحزح من مكانه ، وعرق كثير يكسوه ، حين جاءت بالطبع سيرة نعسة العرجة وانبرى أكثر من واحد يغمزها ويلمزها ويروى الهواجس على أنها وقائع وأخبار ، حتى دفعت المزايدة الدائرة أحدهم لأن يقسم أنها راودته ذات يوم عن نفسه ، وهنا فوجىء الجميع بصرخة ، أو على الأصح شيء كالصرخة ، فلم تكن صرخة تلك التى سمعوها ، ولا استغاثة ، ولا عويلا ، وإنما انفجار كالهدير أو كالجمل حين يضرب

بالقلة ، ثم آهة ، ثم الأهم من هذا كله كلمة سمعها البعض « أعوذ بالله » وبعض آخر « منك لله »، وأقسم هؤلاء وهؤلاء ، ولكن الشيء المؤكد أنهم جميعا سمعوا كلاما بشريا يتصاعد قربهم ، وحين تلفتوا رأوا الشيخ شيخة يترك مكانه تحت الشمس ويتحرك بأسرع مما اعتاد ، ولا يلبث أن يختفى فى حقل الأذرة القريب ولا يظهر .

ورغم كل ما دار وكل ما أجمع عليه الحاضرون واتفقوا ، فبعد يوم أو يومين كنت تلح على بعضهم كفرادى وتضيق الخناق وتستحلفه فيقول : الحقيقة ما اقدرش احلف .. الله أعلم .. إنما ان ما كانش هو ح يكون مين ؟. الجسر ؟

وياما أقسمت أيمان ورميت طلاقات وهاجت البلدة بالجدل ، وقسم كبير يؤكد أنهم خدعوا فى الشيخ شيخة أكبر خديعة وأنه ظل سنين يمثل عليهم دور الأصم الأبكم ليعرف أحوالهم وأسرارهم ويسرق مخبآتهم ، وقسم كبير آخر أهون عنده أن يصدق أن الجسر قد نطق وتكلم من أن يصدق أن الشيخ شيخة هو الذى فعل .. ولكن هذا الجدل والخلاف كان يجرى على أسطح الألسنة فقط ، ففى أعماق الكل كان خوف حاد قد بدأ يتراكم ، وكلما راجع أحدهم نفسه ليتذكر ما قاله فى حضرة الشيخ شيخة وما فعله ، ووجد أن ما قاله كثير وما فعله أكثر ، انقلب خوفه إلى هوس ورعب ، وازداد قلبا للبلدة رأسا على عقب باحثا عنه محاولا أن يراه . إذ ربما تعيد رؤيته ، مجرد رؤيته الطمأنينة إلى نفسه ، ويصبح كل ما قيل ويقال كذبا فى كذب وكابوسا رهيبا مزعجا غمر ،

البلدة ومن فيها ..

غير أن الشيخ شيخة رغم كثرة الباحثين عنه لم يعثر له أحد على أثر ، مما كان له أسوأ الوقع .. إذ تراه أين ذهب ؟ وإلى من يحكى الآن ويعدد ؟

ولكن اختفاءه على أية حال لم يطل ، فبعد أيام قليلة وجدوه عائدا من البندر ، وأغرب شيء أن نعسة كانت تسحبه من يده ، وما كاد الخبر ينتشر حتى كانت البلدة كلها بكبارها وصغارها ، بالأخص نسائها اللاتى كن يبدين هالعات يرتجفن من الغضب والذعر ، ويكون بقعة كبيرة سوداء فى الدائرة الآدمية المحكمة التى ضربت حول نعسة والشيخ شيخة ومضت أعينها تمتد إليهما وتتفحصهما بحدة وشراهة .. ولم يكن شيء قد تغير فى الشيخ شيخة .. شواله الأزرق على حاله ، وشعره على قصره ، كل ما فى الأمر أن رقبته المثنية كانت قد بدأت تعتدل ، والأمر المحير كانت هذه الضحكات التى تصدر عنه كلما سأله أحدهم سؤالا أو وجه إليه كلمة ، ضحكة غريبة تبدو كما لو كان يتكلمها ولا يضحكها .

أما نعسة فقد ظلت ساكتة لفترة ، ثم وكأنها ضاقت فجأة ، انفجرت تسألهم عن سر تجمعهم وتشتمهم وتلعن آباءهم جميعا من أكبر كبير لاصغر صغير .. يا غجر يا لمامة عايزين ليه ؟.. ابنى واللا مش ابنى مالكم ومالنا ؟.. أخرس واللا بيتكلم عايزين منه إيه ؟. كان عيان وداويته يا ناس إيه الجناية فى كده ؟. وحتى لو ما كانش عيان ، لو كان سليم وسمع وشاف .. يعنى ح يكون شاف إيه وسمع ليه ؟.. ما الحال من

بعضه .. واللى بيقول فى حق الناس كلام بطال بيتقال عليه كلام بطال .. واللى بيخبى العيب عن جاره ح يلاقى جارة بيخبى عنه نفس العيب .. ح يكون شاف إيه وسمع إيه .. اوع كده انت وهوه لحسن وحياة مقصوصى ده اللى ح اطوله منكم ح اطبق فى زمارة رقبته مانى سيباها الا بطلوع الروح .

* * *

استمع الناس لكلام نعسة مذهولين حيارى لا يعرفون بماذا يردون .. يرون حماستها التى انبثقت فجأة وأسقطت عنها كل خجل وحجاب ، واستعدت معها لأن تعترف مثلا أن الشيخ شيخة ابنها وتذكر لو لزم الأمر اسم أبيه ، وتصك آذانهم الحمم الخارجة من فمها ، ولا يملكون إزاء ما تقول تصرفا أو حلا ..

وكان لا بد أن ينفض الجمع . ويجىء الغد وبعد الغد .. ويبدأ الشيخ شيخة يخرج وحده ويجوب البلدة ، ويقف وقفته المشهورة لدى جماعاتها الجالسة أو المنتحية ركنا ، ولكن الحديث كان يكف نوعا ما لمقدمه . وإذا استؤنف وبدأ متحدث ما يتكلم ، وتطلع أثناء كلامه ناحية الشيخ ، وفاجأه الشيخ بالضحكة الجديدة التى عاد بها ، ولدت الضحكة فى عقل الرجل كل الظنون وتلعثم وأجبر مرغما على السكوت .. إذن من يدرى ؟ ربما يضحك الشيخ شيخة منه لكيلة القمح التى لطشها أمامه من الجرن يوم التخزين ، بينما هو جالس الآن يتحدث عن السرقة واللصوص . وربما يضحك لعلمه بسر نقطة الدم

التى لا تزال عالقة بذيل جلبابه ، وقد كان يومها واقفا فى نفس المكان . وربما هو يضحك منه لأنه بالأمس فقط كان فى مجلس آخر وكان الشيخ شيخة هناك ، وكان يتحدث بكلام غير الكلام .

حين جاء الغد وبعد الغد .. بدأ الناس يدركون أكثر وأكثر أن المحظور قد وقع ، وأن ضحكة الشيخ شيخة هى الكوة التى فتحت فى كل جدار ، وأن محتويات مخازنهم الخفية السرية فى خطر ، وأنهم أمام الشيخ شيخة عرايا من كل ما يسترهم ويحفظ لهم الشخصية والكرامة والكيان .. وأنهم أبدا لا يستطيعون أن يحيوا فى بلدة واحدة معه ، مع إنسان يعرف عنهم كل شيء .. ويواجههم بضحكته الغريبة البشعة أنى يكونون !

* * *

وكان لا بد أن يصحو الناس مذعورين ذات صباح على صراخ مدو صادر عن قلب يعوى ويتمزق ويقول :

— يا بنى يا حبيبى ..

وتسرع الأرجل هالعة إلى مصدر الصوت فيجدونه ينبعث من الخرابة ، ويجدون نعسة صاحبته ، ويفاجأون بها تقذفهم بوابل من الطوب والأحجار ، وتبكى بحرقة وتلعنهم وتقول إنه كان طول عمره أصم أبكم ، وأن الويل لهم منها ، بينما الشيخ شيخة ممدد أمامها غارقا فى دمه ورأسه محطم بحجر .

« أ » الأحرار

وقعت هذه الحادثة فى مكتب إحدى الشركات الكائنة فى شارع سليمان ، واحدة من الشركات ذات الأبواب الزجاجية المصنفرة والمكاتب الصاج الإيديال والسعاة الذين يرتدون بدلا رمادية ويضعون على جوانب صدورهم لافتات نحاسية دقيقة الحجم .

فى الصباح ، وفى الساعة الثامنة تماما ، الموظفون جميعا على مكاتبهم ، والسعاة على الأبواب ، والسكون مستتب مطبق رغم حفيف الأوراق وتكتكة الآلات الكاتبة والحاسبة . بعد قليل كانت دوامة العمل قد بدأت تدور ، والأبواب الموصدة كثر فتحها وإغلاقها ، وبدأ الموظفون يتجرءون على الصمت وينطقون ، والجو بدأ يحفل بدخان السجائر ورائحتها ، غير أن هذا كله كان يدور أيضا داخل حدود لا يتعداها ..

وفجأة ، وفى حوالى التاسعة بدأت تصل إلى الآذان ضجة غير عادية صادرة من حجرة السيد عبد اللطيف سالم رئيس قسم السكرتارية . وأن تسمع ضجة فى حجرة السيد عبد اللطيف أمر عادى جدا ، ولكن غير العادى أن تحدث هذه الضجة قبل الحادية عشرة صباحا .. فالريس عبد اللطيف كان مريضا بنوع غريب من الربو ، وكانت انفاسه — وبالتالى

خلقه ــ لا تبدأ تضيق قبل الحادية عشرة بأى حال من الأحوال . لهذا كان لا بد أن فى الأمر سرا وليس خلف أبواب الشركة أسرار ، فالسر الذى وراء الباب يعرفه الساعى الواقف أمام الباب ، ومن ساع إلى ساع ينتقل السر حتى يصبح بعد ثوان قليلة خبرا . ولهذا سرعان ما عرف الجميع أن الريس عبد اللطيف يزعق لأحمد رشوان ، وعلى هذا أصبح العجب مضاعفا .. زعيق الريس قبل الحادية عشرة ، والزعيق لأحمد رشوان الذى لم يسبق لأحد وخاصة الريس عبد اللطيف أن زعق له أو احتك به ، فقد كان أحمد هذا شابا مؤدبا جدا ، بل ممكن أن يعد أكثر موظفى العالم كله أدبا .. وأدبه مقرون بمراعاة تامة للأصول وما يصح وما لا يصح . وكلمات مثل : من فضل سيادتك ، وتسمح لى ولا مؤاخذة ، وأشكرك شكرا جزيلا (باللغة العربية الفصحى) ، كلمات مثل تلك يستعملها أحمد آلاف المرات فى اليوم الواحد ، ثم إنه لم يكن جميلا ولا وسيما لتكون لديه مركبات الوسيمين الجميلين مثل افتعال الحركات للفت نظر السيدات والآنسات من موظفات الشركة، أو المحافظة الزائدة على هندامه والعناية به . كان كما يقال دوغرى وجد ، ولكنك لأمر ما لا تستطيع كلما رأيته جادا وقورا أن تمنع نفسك من أن تسخر من جده ووقاره ، ربما لأن له أنفا طويلا بارزا مقوسا ومدببا من أسفل وكأنه رأس خطاف ، ربما لملابسه التى يحرص على اختيارها كلاسيكية جدا فيفصل الجاكتة طويلة وحشمة ، والبنطلونات يجعلها واسعة وقورة . وليس معنى هذا أن أحمد جاد طوال الوقت فهو أحيانا

يهزر معك ويضحك ، ويستمع إلى النكات الخارجة التى يلقيها زملاؤه ، وقد يقرص الواحد منهم فى جنبه ، ولكنه يفعل هذا خلسة وكأنما يفعله من وراء نفسه الجادة الوقورة . ثم إنه شهم إذا كان معه نقود سلفك ، واطمئن فإنه لن يقترض منك أبدا فهو فى مسائل النقود حريص على أن يحيا فى حدود دخله لا يتعداه بأى حال من الأحوال ، وفوق هذا فهو لا يدخن ولا تعرف إن كان يرتاد السينمات أو لا يرتادها ، ولكنه على أى حال فخور جدا بكونه خريج كلية التجارة جامعة القاهرة . صحيح هو يعمل « تايبست » فى الشركة ، ولكن هذا لا يمنعه من الوعى الدائم بأنه أحسن من زملائه كتاب الآلات الكاتبة الذين لا تتعدى مؤهلات الواحد منهم حدود التجارة المتوسطة أو التوجيهية .

والشغل عند أحمد شغل ، والرئيس رئيس ، والزميل زميل . أما الزميلات فليس له بهن علاقة ، إذ هو ضد أن تعمل المرأة إلا مدرسة أو ممرضة . ولا يزال إلى الآن يعتز برأيه هذا ، وبأنه أبداه من عشر سنوات حين كان لا يزال طالبا لمندوب إحدى المجلات الجامعية حين جاءه يسأله عن رأيه فى التعليم المشترك .. يومها ظل قرابة الساعتين يمليه رأيه باللغة الفصحى وهو يتابع ما يكتبه الطالب المحرر ويصحح له أخطاءه الإملائية والهجائية والنحوية ، ويؤكد له أن المرأة مملكتها البيت إذا خرجت منه فلا بد أن تضل الطريق . لهذا فلا بد أن أحمد قد وجد نفسه فى محنة حين عين بالشركة وعينت معه زميلات له يؤدين نفس عمله . اكتفى حينذاك بأن أزاحهم من خاطره تماما وكأنهن غير موجودات .

وبالتأكيد كانت هذه هى المرة الأولى التى يزعق له فيها الريس عبد اللطيف ، فلا بد أن سبب الزعيق مثير للغاية . ولهذا سرعان ما اكتشف بعض الموظفين أن هناك أوراقا مستعجلة يجب إمضاؤها من الريس فى الحال ، وما أسرع ما كان باب الريس يفتح للداخل والخارج ، الداخل يكاد حب الاستطلاع يقفز من عينيه ، والخارج يضع يده فى فمه يكاد يموت من الضحك . ذلك لأن سبب الزعيق كان أغرب سبب ممكن أن يخطر على البال ، بل كان لا يمكن أبدا أن يخطر على البال .

الداخل كان يجد أحمد واقفا مزررا جاكتته ، أنفه معقوف صارم جاد ورأسه منخفض فى أدب وابتسامة لا معنى لها لا تبرح وجهه ، والريس عبد اللطيف خلف مكتبه الكبير ذى السطح الزجاجى يداه تدفعان المكتب وكأنما تريدان قلبه على أحمد رشوان ، وزعيق كثير يخرج من فمه ووجهه وعينيه وحتى من صلعته الخفيفة .. يوزع قليلا منه إلى اليسار ، وقليلا آخر إلى اليمن ، والأغلبية العظمى يصبها على أحمد :

ـــ قلنا ميت مرة الصورة لازم تنكتب زى الأصل تمام بالحرف الواحد بلا زيادة أو نقصان ، قلنا ميت مره كده .

قالها الريس فعلا أكثر من مائة مرة ، وفى كل مرة يسكت منتظرا إجابة أحمد ، حتى إذا ما هم أحمد بأن يجيب قاطعه الريس ومضى يلقنه المحاضرة التى يجيدها تماما عن العمل فى الشركة وأصوله وقواعده .

وأنهى الريس محاضرته قائلا :

ـــ اتفضل . خد الجواب واكتبه بالضبط زى الأصل يا حضرة ..

أتفضل يالله ..

وخرجت كلمة من فم أحمد ، ربما تكون قد خرجت قبل هذا ولكنها كانت المرة الأولى التى يسمعها فيها الريس .

وقال أحمد رشوان :

ــ اسمح لى .. لأ .. مش ح اكتبه إلا كده .

وتحجرت عينا الريس وقال :

ــ أسمح لك إيه ؟!

فقال أحمد :

ــ اسمح لى سيادتك مش ح اكتبه .

فقال الريس بصوت منخفض كصوت الزناد حين يجذب استعدادا لإطلاق النار :

ــ ليه بقى يا حضرة ؟

والواقع أن أحمد تململ للسؤال .. فهو بالتأكيد كان قد جهز نفسه له ، ولكنه وجد حرجا كثيرا وكأنه متأكد تماما مما ينطقه وهو يقول :

ــ لأنى إنسان يا أستاذ عبد اللطيف .. أنا مش آلة كاتبة .

ــ إيه ؟! انت إنسان مش آلة كاتبة ؟! يعنى إيه ده يا حضرة ؟!

قالها الريس وملامحه تتسع فجأة كما ضاقت فجأة ، وهو يمسك شفته السفلى بإصبعين ويجذبهما إلى أمام ويحدق فى أحمد ..

وأول ما خيل للريس أن الجدع قد جن و لم يكن هذا فى رأيه شيئا مستغربا ، فقد كان لا يطمئن أبدا إلى أدب أحمد هذا الزائد عن الحد

ومحافظته المبالغ فيها على الأصول ، والجنون يمكن أن يكون نهاية طبيعية لإنسان كهذا .

وكأنما قرأ أحمد أفكار رئيسه فقد ابتسم ابتسامة اعتذار كبيرة ، وكأن الذى سيقوله عيب ما بعده عيب وقال :

— ما تبصليش سيادتك على إنى مجنون . أنا مش مجنون .. أنا إنسان ولازم يكون فيه فرق بينى وبين الآلة الكاتبة .. أنا .. أنا ..

وإلى هنا انتهت حصيلة أحمد من الكلمات فقد كانت مهمته شاقة ومزدوجة ، كان عليه أن يصوغ ما يدور فى فكره إلى كلمات ، ثم كان عليه أن يعيد صياغة هذا فيجعلها مؤدبة أصولية تصلح لكى يخاطب بها رئيسه . وإذا كانت المهمة الثانية سهلة فالمهمة الأولى أكثر صعوبة ، إذ كيف يصوغ أحمد رشوان ما عنّ له بالأمس من أفكار ، وكيف يشرح للريس عبد اللطيف العصبى الضيق الخلق كل ما حدث بالضبط ، خاصة إذا كان لم يحدث شيء يذكر . كل ما حدث أن نوبة أرق واحدة انتابته فى الليلة الماضية .. كان راقدا فى فراشه غير المريح ، وكاد ينام لولا أن أطار النوم من عينيه برغوث خبيث ، صمم أحمد على أن يعثر عليه حيا وصمم البرغوث على أن يحاوره ولا يجعله يظفر به ، كلما كاد يطبق عليه أصبح وكأنه فص ملح وذاب . وأخيرا غطس البرغوث و لم يظهر ، ولكنه ترك أحمد يعانى من ذلك الإحساس المقلق ، الإحساس بنهشات خفية وزحف أقدام دقيقة غير مرئية ، ذلك الإحساس الذى يدفع الإنسان إلى التأرجح بين الشك واليقين فى وجود تلك الكائنات . وفجأة وبدون سابق إنذار

خطر لأحمد رشوان ذلك الخاطر الذى كاد يجعله يقفز من الفراش ، فقد اكتشف أنه ليس كاتبا على الآلة الكاتبة كما يظن نفسه ويظنه الناس ، ولكنه هو نفسه آلة كاتبة .. كيف جاء الخاطر فى ذهنه ؟ لا أحد يدرى . وكيف استطاع ذهن أحمد رشوان الأصولجى أن يجمع تلك المفارقة أو المشابهة التى بدت غريبة كل الغرابة ؟ لا أحد يدرى أيضا .. المهم أن الفكرة استحوذت عليه تماما حتى أنسته النوم والفراش وزحف الكائنات غير المرئية ، ودون أن يستطيع أن يكبح جماح خياله وجد نفسه يوغل .. ما الفرق بينه وبين الآلة الكاتبة ؟ هو صحيح خريج جامعة ومحترم ولكنه فى عمله لا فرق بينه وبين الآلة الكاتبة التى يكتب عليها .. هو له أصابع وهى أيضا لها أصابع ، وهو يقرأ الأصل وتستحيل الكلمات خلاله إلى ضغطات ، والمكنة تستحيل الضغطات خلالها إلى كلمات . وإذا كان هو يأمر المكنة بأصابعه أن تكتب ، فالشركة تأمره بأصبع واحدة منها أن يكتب . وإذا كانت المكنة لا تستطيع أن تغير ما يأمرها به إذا ضغط على حرف الميم فلا بد أن تكتب ميما ، فهو أيضا لا يستطيع أن يغير إذا قالوا له اكتب كذا فلا بد أن يكتب كذا ، أجل ، ما الفرق بينه وبين الآلة الكاتبة ؟ الواقع لا شيء ، بل الحقيقة لا شيء مطلقا .

وأول الأمر ضحك أحمد كثيرا ، ضحك بلا وعى ، ولم يكف عن الضحك إلا بعد أن فطن لنفسه فوجد أنه يضحك ضحكا غريبا ماسخا فى الشقة المظلمة الخاوية « فأحمد رشوان كان قد تعدى الثلاثين ومع هذا كان لا يزال أعزب ».. وآلاف الخواطر كهذه تعن لآلاف الناس آلاف

المرات فى اليوم الواحد ، ولكنها لا تعلق بأذهانهم كثيرا . إنها كآلاف الأشياء التى تبرق فى أرض الشارع المشمس يعبر بها الناس ولا يحفل ببريقها أى منهم ، ولكن بريق أحدها قد يجذب أنظار عابر سبيل ليتوقف عنده مثلا ويحدق فيه ، بل ممكن أن ينحنى ويتناوله ويتفحصه ، وفى أغلب الأحيان يعود ليلقى به وهو يضحك من نفسه ومن البريق الزائف الذى شغله .

وكان ممكنا أن يحدث هذا لأحمد رشوان فيلقى بالخاطر من وراء ظهره ويعود إلى متابعة أفكاره أو محاولة النوم ، ولكن ربما لفراشة غير المريح ، وربما لأنه كان فى حاجة ماسة إلى ما يشغله عن إحساسه بالكائنات غير المرئية التى تقاسمه فراشه ، ربما لهذا تلكأ عند الخاطر قليلا .. وويل لأى منا إذا تلكأ عند خاطر فقد يغير التلكؤ مجرى حياته .. ربما تتلكأ عند كلمة قالتها فتاة وأعجبتك طريقة نطقها لها فإذا بك بعد شهور زوج لهذه الفتاة ، والتلكؤ عند واجهة مكتبة قد يوقع فى يدك كتابا يغير شخصيتك تماما . ونيوتن المشهور لم يفعل اكثر من أنه تلكأ ذات يوم أمام تفاحة سقطت من تلقاء نفسها من على الشجرة .

أحمد رشوان هو الآخر تلكأ عند الخاطر ومضى يقلبه على وجوهه ، أحيانا يحسب الأمر هزلا فى هزل إذ أمن المعقول تنعدم الفروق تماما بينه وبين الآلة الكاتبة ؟ ولكنه حين يحاول أن يجد فارقا أساسيا ولا يستطيع يدخل الأمر فى طور الجد ، ويبدأ يخاف أن يكون التشابه حقيقة . بل بلغ

به الوضع حد أنه كان أحيانا فى أصابع يديه ويلعبها معا فى الظلام ثم يوقفها جميعا ويلعب كلا منها على حدة،وأحيانا يشيح بيده وكأنما يقول: غير معقول هذا .. غير معقول ..

بل عنت له خواطر مضحكة للغاية ، لم لا يكون الأمر عكس ما يتصور ، وتكون الماكينة الكونتيننتال التى يكتب عليها أفضل منه ؟ فهى على الأقل ضامنة بقاءها فى الشركة مدى الحياة وهو غير ضامن بقاءه ولو ليوم واحد . وحتى المنضدة التى تستقر عليها منضدة أنيقة صنعت خصيصا من أجلها وكلفت الشركة ما لا يقل عن العشرة جنيهات ، بينما مقره هو عبارة عن كرسى ملقلق الساق اشترته الشركة فى مزاد ووقف عليها ببضعة قروش .

وعشرات الأفكار المضحكة للغاية .

وكأنما كان طوال المدة التى قضاها يفكر ويسرح ، كان يدخر لنفسه خط رجعة مؤكدا ، وكان ضامنا مائة فى المائة أنه يملك الدليل القاطع على أن ثمة فرقا كبيرا بينه وبين الآلة الكاتبة . فقط كان يحتفظ بالدليل ليفاجئ به أفكاره فى الوقت المناسب .. وأخيرا لم يجد بدا وأخرج الدليل وقال لنفسه : الفرق بيننا أنها آلة جامدة صماء بكماء لا تستطيع التصرف وحدها أبدا ، أما أنا فأنا ملك .. أنا إنسان أستطيع أن أفكر وأتصرف بمطلق إرادتى .

قال هذا لنفسه وهو يسحب الغطاء فوقه وكأنما يكيل الضربة القاضية وينهى المعركة التى دارت وطالت فى خياله .

ولكنه ما كاد يسحب الغطاء حتى دق شيء .. ومن كثرة تفكيره فى المكنة خيل إليه أنها بالتأكيد هى التى تدق ، بل ذراع واحدة فقط من عشرات أذرعها هى التى تدق بلستمرار وكأنما علقت وتكتب : لا لا لا لا .

وبسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة — وهى السرعة التى طالما حلم أحمد أن يكتب بها — مضت أذرع الآلة ترتفع وتنخفض وتتداخل فى الظلام وتكتب وترد عليه فى تكتكة منتظمة : انت واهم .. من قال إنك تملك حق التصرف . أنت مثلى تماما وحريتك فى التصرف كحريتى والدليل موجود . الخطاب المشهود الذى كنت تكتبه لشركة الأسمنت ووجدت أن كلمة « شئون » مكتوبة خطأ والهمزة موضوعة فوق الواو ، وذهبت إلى الريس عبد اللطيف فرحا تريه الخطأ وظننت أنه سيكافئك لفطنتك ونباهتك . أتذكر نظراته التى التهمك بها وهو يقول :

— اسمع يا حضرة . انت هنا مش على كيفك يا حضرة . اللى مكتوب قدامك انقله زى ما هو يا حضرة . غلط مش غلط ملكش دعوة يا حضرة . إيه ح تعدل ع الشركة . الشركة عايزه الهمزة على الواو تبقى الواو يا حضرة . عايزاها طايره فى الهوا تبقى طايره فى الهوا ، فاهم يا حضرة ؟ اتفضل على شغلك واعرف مركزك كويس . انت هنا كاتب يعنى تكتب ، يعنى تفعل ما تؤمر به . انت عارف المكنة ؟ انت زى المكنة .. فاهم يا حضرة ؟

الريس عبد اللطيف ذو الصدر المقفع إذن هو الذى أوحى إليـــه

بالخاطر ، وظل الخاطر كالقنبلة الزمنية فى عقله حتى فجره الأرق اللعين فى تلك الليلة الليلاء ..

فى نفس الوقت الذى اكتشف فيه أحمد رشوان السبب كانت أشياء كثيرة أخرى قد حدثت داخل عقله ، وحدثت كلها معا وبسرعة مذهلة . فأولا كان قد آمن إيمانا لا شك فيه أنه فى نظر الشركة مكنة لا أكثر ولا أقل ، وأن الريس عبد اللطيف على حق ، والمكنة على حق وهو وحده المخطئ الواهم الذى كان يظن نفسه شيئا آخر غير هذا ، شيئا اسمه الإنسان . وفى لحظة خاطفة تصور أحمد نفسه بأنفه الذى يعتد به كثيرا ، بالكتب التى كان يقرؤها أثناء دراسته ويتيه على زملائه بقراءتها وإدراك حقائق عن الكون والحياة لا يدركونها ، بكفاحه الرهيب من أجل الشهادة ، بالشهادة ، بحياته وكل أحلامه ، بكل هذا مجرد مكنة ، آلة ، حتى أقل من الآلة التى يكتب عليها !

للحظة خاطفة تصور أحمد هذا ، ولكنها كانت كافية لأن تملأه بالغضب . وغضب أحمد رشوان لأمثال هذه الأشياء .. غضب يعرفه عنه كل أصدقائه وزملائه. إذا كانت المسألة مسألة مبدأ وحق ركبه الغضب وأبى أن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة . حدث مره فى أثناء امتحان المحاسبة أن وقف أستاذ المادة فى وسط خيمة الامتحان ولبخ فى حق الطلبة واتهمهم بأنهم سفلة وأوغاد (إذ كان الطلبة قد أحدثوا ضجة بعد توزيع الأسئلة لصعوبتها) ، فما كان من رشوان إلا أن ترك الإجابة وانتصب واقفا يحتج على الأستاذ . وغضب الأستاذ وأصر على طرد رشوان من

اللجنة وتقديمة لمجلس تأديب ، ولكنه تحت إلحاح المدرسين زملائه اكتفى بأن قال إنه على استعداد للصفح عنه لو اعتذر عن تصرفه علنا أمام الطلبة ، ورفض رشوان رفضا باتا أن يعتذر وفضل أن يغادر اللجنة ويرسب فى المحاسبة على أن يهين كرامته .

كان لا يمكن أن يمر خاطر كهذا على أحمد رشوان مرور الكرام إذن ، فالأصول أنه إنسان ، وخلافا لكل الأصول أن يكون مجرد مكنة . وعليه أن يثبت لنفسه والناس أنه إنسان وأن ثمة فرقا كبيرا بينه وبين المكنة ، عليه أن يثبت هذا أو يهلك دونه .

* * *

وفى صباح اليوم التالى كان أحمد رشوان يأخذ طريقه إلى مقر الشركة فى شارع سليمان وكأنه فى طريقه إلى ساحة معركة أو لجنة امتحان . كان قد سهر كثيرا ، وكان عصبيا وعلى وجهه تصميم خطير . لم يكن لديه أية فكرة عما يمكن أن يفعله ولكنه كان مصمما على أن يثبت لنفسه على الأقل أنه إنسان ، إنسان حقيقى ، وليس مجرد آلة كاتبة .

دخل المبنى وألقى تحيات الصباح وتلقى التحيات ، وبوجه غير صبوح صبح على الريس عبد اللطيف وتناول منه (الشغل) بلا ذيول شكر طويلة كما تعود أن يفعل .

وذهب إلى الحجرة التى يعمل فيها هو وزملاؤه . كان أكثرهم قد سبقوه وبين حفيف التحيات ونكات الصباح الخفيفة الطائرة جلس . وبينما كان يرفع الغطاء عن المكنة لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة

متشككة عليها ، ومط شفتيه حتى التصقت شفته العليا بأرنبة أنفه المدببة ، وذلك أنه وجدها فعلا كتلة من حديد .. حديد فى حديد يلمع .. وحديد مطفأ . وبرودة وسكون ولا حياة . مكنة صماء بكماء ذلك أمر لا شك فيه .

وقبل أن يبدأ فى كتابة الخطاب الأول قرأ الأصل بإمعان .. وحين قارب الانتهاء تهلل وجهه وابتسم ، ذلك لأنه عثر على الشيء الذى كان يريد العثور عليه ، فقرب نهاية الخطاب وجد فى الأصل تعبيرا يقول :

« وحينئذ نكون أحرارا فى التصرف بمقتضى ما تخوله لنا كافة حقوقنا كشركة مساهمة » .

عند كلمة « أحرار » توقف أحمد رشوان . وهو نفسه لا يدرى لماذا اختارها بالذات وجعلها ضالته المنشودة وصمم على أن يحذف منها الألف ويكتبها « أحرار » فقط ، ربما لأنه وجد موسيقاها هكذا تنسجم أكثر مع بقية الجملة ، وربما لأسباب أخرى لا يعلمها إلا الله .

مضى يكتب الخطاب بحماس وهو يحس بنشوة لأنه يكتب شيئا أراده هو ويملك التصرف فيه ، يكتب وهو يرمق فى شماتة أذرع المكنة وحروفها وهى ترتفع وتنخفض فى طاعة بكماء عمياء ، وهو الذى حين جاءت كلمة الأحرار راح يكتبها على مهل وكأنه يتلذذ بطعم كتابتها ، ورمق الألف فى الأصل ثم ازور عنها شامخا بأنفه ، وتابع الكتابة وكأنه يعزف على مفاتيح بيانو أو ثقوب ناى . وكان أسرع خطاب كتبه بعد أن التحق بالشركة ، بل وقبل أن يبدأ فى غيره ذهب به إلى مكتب الريس،

ومعه الأصل والصورة وفى صدره حماس مستبشر دافق .

والذى حدث أن الريس عبد اللطيف ما كاد يلقى نظرة سريعة على الخطاب حتى أدركت عينه الخبيرة على الفور أن الأحرار مكتوبة بلا ألف ، فنظر إلى أحمد رشوان طويلا وكأنه يريد تجميده وقال :

ـــ هى فى الأصل أحرارا واللا أحرار يا حضرة ؟.

ـــ أحرارا .

ـــ يعنى بألف ؟

ـــ أيوه بألف .

ـــ يعنى شفتها ؟

ـــ شفتها يا ريس .

ـــ طيب أمال يا حضرة ما كتبتهاش ليه ؟.. روح يا حضرة اكتبها وهات الجواب تانى ..

فقال أحمد رشوان بكل ثبات واطمئنان :

ـــ مش ح اكتبها يا سيد ..

والواقع أنه قال هذا وكادت تنتابه نوبة خوف ، فالدهشة الشديدة المذهلة التى ارتسمت على وجه الريس عبد اللطيف كانت شيئا يخيف ، إذ كيف يعصى مرءوس رئيسه هكذا فى وضح النهار وعينى عينك وفى مسألة لا تحتمل النقاش ؟!

دهش الريس عبد اللطيف وذهل ولم ينطق فى الحال ، وخلال ذلك الصمت كان أحمد رشوان فى حالة أخذ ورد مع نفسه ، ذلك أنه فى قرارة نفسه لم يكن شديد الإيمان بما هو مقدم عليه . إن هى إلا نوبة حماس عنت

له إثر خاطر حاد فى الليل وكان لا بد لها أن تثمر عملا ما . وقام أحمد بهذا العمل ، وكان على استعداد للتراجع بل لم يكن يعتقد أن المسألة ممكن أن تأخذ كثيرا من الشد والجذب .

وأخيرا تكلم الريس وقال :

ــ بتقول إيه يا حضرة ؟

وفى أدب جم عاد أحمد يقول : أنا رأيى يا أستاذ عبد اللطيف أنها تنكتب من غير ألف تكون أحسن .

ــ رأيك ؟!

خرجت الكلمة كالرصاصة فى فم الرجل ، أعقبها بسرب دافق من القذائف !

ــ رأيك ده تلفه فى ورقه وتبلعه على ريق النوم . رأيك ده تقوله لصاحبك وانتو ع القهوة . رأيك هناك عند بابا وماما إنما هنا مفيش رأيك . هنا شركة ليها أوامر وقوانين . هنا تمشى تروح تكتب الألف ورجلك فوق رقبتك ، ولولا عارف إنك طيب كنت بهدلتك صحيح .. اتفضل يا حضرة ..

وانتاب أحمد غضب وقال :

ــ أنا أحتج يا سيد عبد اللطيف على الإهانات دى ..

ــ انت مش تحتج ، ودينى لاخصم لك يوم كمان .. اتفضل روح اكتبها ..

وهكذا وجد أحمد نفسه فى قلب المعركة .. معركة الدفاع عن

كرامته كإنسان .. لم يكن يعتقد أن الأمر ممكن أن يتطور إلى هذا الحد ، وطبعا كان واثقا أن مسألة الخصم هذه تهديد ليس إلا والمشكلة ممكن أن تحل بإضافة ألف إلى الأحرار واعتذار لبق وينتهى كل شىء . ولكن كان أسهل عليه أن يقطعوا رقبته قبل أن يفعل شيئا كهذا ، فأهم شىء فى نظره كان هو الثبات ، فالمسألة لم تعد أحرارا بألف أو بغير ألف ، المسألة أصبحت كرامته وشرفه ، فلم يكن يعتقد أنه سيهان على تلك الصورة ويعامل كما لو كان آلة كاتبة لا تحس ولا تغضب ..

كل هذا وصوت الريس يعلو أكثر وأكثر ، وعناد أحمد يزداد .. الريس يقسم أنه لن يتركه إلا إذا كتبها ورجله فوق رقبته ، وأحمد يقسم أنه لن يكتبها ولو خرج له أبوه من التربة وأمره بكتابتها . والصراع قد وصل قمته ، والمسألة التى بدأها أحمد وهو غير مؤمن تماما بها كانت قد تبلورت إلى درجة أنه لو قبل إضافة ألف للأحرار فمعنى هذا أنه تنازل طائعا مختارا عن كرامته ورجولته وشرفه ، وإذا كان الناس فى الصعيد وفى كل مكان يقتلون دفاعا عن كرامتهم ورجولتهم أفلا يستطيع هو الصمود مهما كانت النتائج ؟

وطبعا لم يقف الزملاء مكتوفى الأيدى .. حاولوا تهدئة الريس بلا فائدة ، وحاولوا حمل أحمد على الإذعان بلا فائدة . بل كان يقابل هدهداتهم ورجواتهم باشمئزاز ، إذ هم فى نظره أكلة عيش منافقون مداهنون لا يقدرون قيمة هذه الأشياء والمواقف ، يلتقطون الخبز من بين أقدام الرؤساء بعد أن يلعقوا تلك الأقدام . فليمت قتيلا ولكنه أبدا لن

يكتب ألفا للأحرار .

والعجيب أنَ قليلا من زملائه الموظفين والكتبة هم الذين كانـوا يضحكون بينهم وبين أنفسهم على المشكلة القائمة ، أما الغالبية العظمى فقد أخذت الأمر على أنه مشكلة من واجبهم حلها برجاء هذا وممالأة ذاك أو حتى باقتراح حل وسط ، إذ اقترح أحدهم أن يقوم هو بكتابة ألف الأحرار حسما للنزاع ، وقوبل اقتراحه برفض هائل من الـريس وباستنكار حاسم من أحمد رشوان ..

وسرعان ما ضاق صدر الريس عبد اللطيف فهدر فى جميع من بمكتبه يأمرهم بالخروج مقسما بالله العظيم ثلاثا أن سيكون جزاؤه على تلك الفعلة هو الرفت العاجل .. اليوم بلا أى تأخير . قال هذا وهو يعتصر قبضتيه ويصر على أسنانه ويجهز نفسه لكتابة مذكرة مستعجلة جدا لمدير عام الشركة يطلب فيها فصل أحمد رشوان فورا إذ الجريمة فى نظرة أخطر جريمة .. عصيان واغتصاب ، وإذا لم تعالج الأمور بحزم وبتر ممكن أن تسرى عدواها إلى بقية الموظفين .

أما أحمد فقد أخذه الزملاء إلى حجرتهم وأحضروا له فنجان قهوة رفض أن يشربه ، وظلوا يتحايلون عليه يحذرونه من العقاب ويقسمون له أن المشكلة الآن حلها بسيط وأن الريس عبد اللطيف عصبى صحيح ولكنه ابن حلال ، فأقل اعتذار يرضيه ..

ولكن أحمد ظل يهز لهم رأسه باستمرار ، بل كان حريصا على أن تظل الابتسامة طوال الوقت فوق ملامحه حتى لا يعتقد زملاؤه أنه مهزوز مع،

أنه كان مهزوزا .. كان قد صمم تصميما نهائيا خطيرا على عدم التراجع ، فقد كان يدرك أنه لو تراجع فلن يحترم نفسه بعدها ، هو الذى يعتبر أن ميزته الوحيدة أنه يحترم نفسه .. بل سر حرصه على الأدب الجم فى معاملة الناس أنه يريدهم أن يعاملوه بأدب ، فإذا فقد احترامه لنفسه فأى قيمة تبقى له كإنسان ؟.

وسرى الخبر طبعا فى جميع أنحاء المكتب .. وتلقفته الأفواه ضاحكة وساخرة ومعقبة ، حتى أصبح الخبر نكتة تروى ، وصار الموظفون الكائنون فى الأجنحة البعيدة يتسابقون إلى حجرة أحمد رشوان ليتفرجوا على زميلهم العجيب الغريب الذى رفض أن يكتب ألف الأحرار ، معتقدين أنه لا بد قد أصيب بلوثة ، يحدقون فى ملامحه ويشاهدون كيف يتكلم وبأى ردود يجيب ليعرفوا مدى إصابته .. وكانوا يعودون إلى مكاتبهم وقد انقسموا على أنفسهم ، بعضهم يؤكد أنه مجنون وبعضهم يؤكد أنه لا بد تعبان شوية وآخرون يصرون على أن المسألة كلها لا تعدو أنه ابتلع ليلة الأمس قطعة حشيش لا يزال مفعولها ساريا فى جسده ، ويؤكدون هذا قائلين :

ــ دا من شكله باين عليه حشاش ..

* * *

وعن طريق الريس عبد اللطيف وصل الأمر إلى المدير العام ، والظاهر أنه لم يكن لديه ما يشغله أو أنه وجد المشكلة غريبة ومضحكة فى الوقت نفسه وأراد أن يتفرج على الموظف الأعجوبة هذا الذى رفض أن يكتب

ألف الأحرار ، الظاهر هذا لأنه بناء على المذكرة التى قدمها السيد عبد اللطيف كان باستطاعته أن يمضى قرار الفصل فى الحال أو يخفض العقاب إلى خصم وإنذار مثلا .. وأن يطلب المدير العام موظفا صغيرا معناه فى العادة كارثة سوف تحل بالموظف أقلها أن يوقف أو يفصل أو يتهم فى تبديد ، وهكذا مضى أحمد يتلقى كلمات التعزية والتشجيع وهو يخطو إلى مكتب المدير العام بخطوات راعى أن تكون منتظمة ومتماسكة ووقورة ..

وكانت أول مرة يدخل فيها أحمد مكتب المدير العام ، وخيل إليه حين أصبح فى الداخل أنه لم ير فى حياته مكاناً فيه كل تلك الفخامة والأناقة والروعة ، حتى النتيجة المعلقة على الحائط مطلية بماء الذهب ، وكل شيء فى الحجرة مدير عام . المقاعد والستائر والهواء المكيف اللذيذ الذى يكاد يصيب الداخل بقشعريرة جنسية ، والسكوت التام المطبق الذى تحس فيه بدقات ساعة يدك عالية قبيحة بلدية ..

وما كاد أحمد يستجمع شعاعات نفسه الطائرة ويلتقط أنفاسه ويبدأ يبحث عن المدير العام فى تلك الصالة الفخمة الواسعة حتى فوجىء بصوت نحيف أخنف يقول له :

— قرب يا شاطر ..

وتقدم أحمد بضع خطوات أخرى حتى بدأ يتبين ذلك الرجل النحيف جدا القابع وراء المكتب لا يظهر منه غير رأس دقيق كراس الفأر ، وبينما أحمد حائر ماذا يفعل أو يقول جاءه الصوت مرة أخرى :

ـ إيه الحكاية ؟ فيه إيه ؟ مش عايز تكتب الأحرار ليه يا شاطر ؟

ووجد أحمد نفسه باندفاع ولا إرادة :

ـ عشان أنا إنسان يا سيادة المدير ..

وضحك المدير وقهقه .. ضحك كثيرا جدا وظل كرسيه يدور به وهو يضحك ويعلو حتى كاد يصبح فوق المكتب . وعرق أحمد وتلجلج وأحس أنه قال كلمة سخيفة لا معنى لها إذ ما أدرى المدير العام بكل ما دار في عقله من خواطر ؟ وبدأ يبتلع ريقه وأفكاره بسرعة ليبلل حلقه الجاف وعقله ويستطيع أن يتكلم ، وتكلم .. وشرح للمدير كل ما عن له من خواطر . وكلما رأى الرجل يستمع كان يحس أنه رجل طيب جدا على عكس ما يتصوره الناس عن مديرى العموم .

وحين انتهى فوجئ بالمدير العام يقهقه ويدور فى كرسيه والكرسى يهبط به حتى كاد يصبح تحت المكتب .. واعتمد المدير رأسه على كفيه وقال :

ـ أمال انت فاكر ايه يا سمك ايه ؟ دا مش انت بس اللى مكنه .. انت مكنه وعبد اللطيف رئيسك مكنه وأنا مكنه وكلنا مكن .. مش أنا المدير العام أهه ؟ رئيسى عضو مجلس الإدارة المنتدب افرض قال لى اشترى ألف سهم من أسهم الشركة ، أقدر أشترى ٩٩٩ ؟ لازم اشترى ألف ، وإذا عملت كده أترفد والا لأ ؟ طبعا أترفد . يبقى أنا فى الحالة دى ايه ؟ انطق . أبقى ايه ؟

وقال أحمد بصوت لم يصل أبدا إلى أذن المدير : تبقى سيادتك مكنه .

فقال المدير وهو يستدير فى كرسيه ويولى أحمد رشوان ظهره والمشكلة بالنسبة إليه قد انتهت :

ــ روح أحسن اعتذر لرئيسك . وأنا ح اكتفى بخصم يوم واحد من مرتبك . اتفضل ! كلنا مكن يا مغفل .. كلنا مكن .

وانتظر المدير قليلا ليترك لأحمد فرصة الانسحاب ، وبعد لحظة استدار مرة أخرى وإذا به يفاجأ بأحمد رشوان لا يزال واقفا ، بل فوجئ أكثر حين وجد أنه قد انتظر اللحظة التى يواجهه فيها ليقول :

ــ بس أنا إنسان يا سيادة المدير .. أنا إنسان .

ــ إنسان فى عينك قليل الأدب ما تختشيش .. ده جزاء اللى يعاملكم بشفقة ؟ غور من وشى ياللا غور .

ــ يا سيادة المدير أنا بكالوريوس تجارة ، أنا مش ..

ــ غور من وشى .

وقبل أن يفتح أحمد فاه مرة أخرى كان الباب قد فتح ودخل الساعى وجذبه من يده برفق وأخرجه وأغلق الباب .

ولكنه ما كاد يصبح فى الطرقة حتى كان جرس المدير يدق ، وحتى كان قد استدعى مرة أخرى للمثول فى مكتبه .

ودخل أحمد بوجه شاحب كوجوه المنومين مغناطيسيا وكأنما هو مدفوع للمضى فى الطريق الذى صمم عليه بقوى خفية أكبر منه . والمدير العام أيضا كان متجهما صارما وكأنما قد نبتت له فجأة أنياب وأظافر .

وخير أحمد بين الموافقة على كتابة الألف فورا وخصم ثلاثة أيام من مرتبه ، أو فصله نهائيا من الشركة .

وما كاد أحمد يفتح فمه ويقول : أنا .. حتى كانت يد المدير على الزر وحتى كان السيد عبد اللطيف داخل الحجرة وكأنما انشقت عنه الأرض . وكلمة واحدة قالها المدير لعبد اللطيف :

— ارفدوه .

ثم لم يلبث أن أردف :

— دلوقت حالا ..

* * *

ورفدوه .

سلمه عبد اللطيف الأمر الإدارى بفصله وطالبه بتسليم العهدة ، ونصحه مدير المستخدمين بأن يرفع قضية على الشركة لعل وعسى .

والتف الزملاء حول أحمد حين عاد إلى الحجرة ليسلم ماكينته الكونتننتال وهى كل عهدته . كان فى وجوههم أسى كثير ورثاء ، ولكنه كان فى قرارة نفسه يرثى لهم هم . كان يحس أنه هو وحده الإنسان وأنهم هم من فراشهم إلى مديرهم العام مجرد ماكينات كاتبة وحاسبة وكانسه ومفتشة ..

وبينما كان أحمد يعبث بأحرف المكنة ليتأكد من سلامتها ، دق صدفة على حرف الألف ولكنه فوجئ بأن ذراعها لا ترفع ، ودق مرة أخرى ولم ترتفع الذراع .

واعتقد زملاؤه أنه لا بد قد جن حقيقة حين انطلق إلى حجرة الريس عبد اللطيف وهو يصرخ بطريقة مختلفة تماما عن طريقته المؤدبة وبانفجار :

ـــ الحق يا ريس .. اتفضل آهي المكنة رافضة تكتب الألف . هيه ! ارفدوها بقى هيه رخره يا ريس .. ارفدوها .

فقال الريس عبد اللطيف وهو يكح :

ـــ المكن يا بني لما بيرفض الكتابة ما بيترفدش ، بيصلح .. ابقوا ودوها الورشة وصلحوها .

* * *

وغادر أحمد مبنى الشركة وأصبح فى الشارع ولكنه بعد قليل لم يعد يعرف فى أى الشوراع يمشى فقد ظل يسير كالمفيق من حادث ، كالحالم ، كالمصدوم ، يسير ويسير بلا وعى وبلا هدف أو وجهة . وأخيرا وجد نفسه مرة أخرى فى شارع سليمان قريبا من لافتة الشركة ومبناها . ولم يستطع أن يمنع خاطرا صبيانيا خطر له وجعله يقرأ اللافتة وكأنه يراها ويتأملها لأول مرة . وفقط حين ينتهى من قراءتها أدرك أنه قد رفد اليوم وأنه فقد عمله وأن عليه أن يستعد لأيام وربما سنوات عجاف ، وأن سبب رفده أغرب سبب .. إصراره على أنه إنسان .

ومرة أخرى نظر حوله .. الشارع يموج بالناس والعربات والدراجات والناس تسابق العربات والدراجات تسابق الناس وهو ماش ـــ لا يسابق دراجة ولا تسبقه عربة ، بلا هدف ولا وجهه .

وفجأة أحس بشيء حار يندلع فى جوفه ، شيء جعله يقف فى وسط

الشارع ولا يشعر بنفسه إلا وهو يصرخ ويقول :

ــ أنا إنسان .

والتفتت رءوس المارة مندهشة ناحيته ، وأطلت من العربات وجوه ، وألقيت عليه نظرات كثيرة مستغربة . وقال واحد :

ــ الناس باين عليها اجننت !

وضحك طفل وزأر كلاكس يأمر أحمد بإخلاء الطريق .

ولم يستغرق هذا كله إلا لحظة خاطفة ، ثم لم تلبث الحركة أن عادت فى الشارع إلى سابق عهدها وكأن شيئا لم يحدث .

أحمد المجلس البلدى

أنى تذهب كنت تجد أحمد العقلة .. نجارا تلقاه ، حلاقا تلقاه ، تاجرا فى مخلفات الجيش تلقاه .. ثم هو بعد هذا يجيد شغل الآلاتية ، وكى الناس للشفاء من الأمراض ، وجس البهائم العشر ، والقيام بأعمال الأبونيه وتعهدات فرق المزيكا والرقص ، وإصلاح الكلوبات والبوابير فى الأفراح ، وحتى فى «تلتيم الموتى» تلقاه .

ومع هذا كله فقد كان بساق واحدة .

ـــ أو على وجه الدقة بساقين : ساق خلقها الله وساق صنعها بنفسه على هيئة عكاز عظيم الشأن تفنن فى مسحه وتنعيمه وتزويقه ، وحفر الحمام والعصافير والنساء الممسكات بالسيوف عليه .

وإذا كانت ساقه التى خلقها الله وسواها تمشى فى أمان الله وبصوت غير مسموع ، فساقه التى خلقها هو لها دبيب معروف وفى أى مكان من البلد يمكن أن تسمعه .. على الترعة ، وعند المحطة ، وفى القهوة ، وفوق أسطح البيوت ، وأحيانا فى كل تلك الأماكن مجتمعة . ساق يستطيع أن يعدى بها المصارف ، ويقفز بها من فوق أكياس القطن ، وينزل بها فى « الباط » لشباب البلد ويغلبهم ، ويدخل معهم فى مسابقات جرى على السكة الزراعية .. والغريب أنه يفوز ..

وأحمد العقلة لا تستطيع أن تحدد له سنا أو هيئة أو حرفة حتى ،

ولا قامة .. إذا أردته قصيرا وجدته ، طويلا وجدته ، أحيانا تبدو لك عينه اليسرى عوراء عن بعد وسليمة عن قرب ، وتبدو اليمنى أحيانا كذلك ، وله كتف أعلى من كتف ، ووجه لا يريك إياه ، وإنما إذا حادثته ظل كالحمار الذى تحاوره ذبابة يخفضه ويعليه ، وينظر إلى جانب أو آخر كأنما يلهيك عن رؤية وجهه ، ربما لعلمه أنه لا يخضع خضوعا حرفيا المقاييس الجمال المتعارف عليها ..

إذا ضحك لا يضحك ، وإذا حزن لا يحزن ، وإذا تكلم تهته . وهو كثير الأسفار كثير الغياب ، كثير المشاريع والتقاليع ، يبدأ عملا من الأعمال أو حرفة من الحرف وينجح فيها ، حتى إذا ما بلغ قمة النجاح تركها فجأة وبلا مقدمات إلى غيرها . قيل مرة إنه لو حافظ على ما كسبه لأصبح من ذوى الأطيان ، ويطير هو دائما وراء القائل مهددا إياه بعكازه ، لاعنا أباه وأبا الأطيان .

تجده يوما فى البلد ويوما فى القاهرة ويوما فى العريش ويوما جالسا على قهوة بلدى فى السلوم يروى لعربى بعقال حادثا غريبا وقع له فى عنيبة على الحدود بين مصر والسودان ، ومقسما بالله العظيم وبرحمة أبيه أنه حدث ..

وإذا سافر سافر بالإكسبريس فهو لا يطيق بطء القشاش ، وإذا ركبه ركبه فى الدرجة الأولى العليا أى فوق سطح القطار ، وإذا أراد أن يهبط لا يهبط كبقية خلق الله فى المحطات، بل يهبط بين محطتين والإكسبريس مارق بأقصى سرعة .

وكل شيء فيه يتحرك ، ودائم التحرك .. يده تتحرك لتقص شعر واحد بطريقة مدهشة للغاية ، أو تمتد إلى كيس خفي وتخرج منه ولاعة غريبة الشكل صنعها بنفسه لتفرجك عليها ، أو تقبض على يد أخرى وتضغط عليها وتكاد تكسرها للهزل ليس إلا .

ولسانه دائم التحرك ، يعدل حكاية رواها أحدهم ويكذبه فيها ، أو يلقى إليك بخبر يذهلك ، أو يخرجه لبنت حلوة يتصادف مرورها أمام الدكان .

وإذا حلق أحيانا لا يطلب من بعض زبائنه أجرا ، وأحيانا يطير وراء الزبون من هؤلاء مطالبا بأجره مهددا بضربة عظمى من عكازه .. وممكن أن تدخل دكانه فتجد نفسك وكأنك فى متحف ، فالدكان عشة من البوص أقامها بنفسه وطلاها بنفسه وبيضها بنفسه ، ونقش أسفلها وأعلاها بنفسه أيضا . واللمبة الغاز من صنع يده ، بل هو أيضا صانع البرنيطة التى تحجب ضوءها عن السقف .. وهو الذى دندشها بالرسوم والنقوش والآيات القرآنية .. ولا بد أن يفتح لك صندوقا من داخل صندوق ويخرج لك ماكينة حلاقة جديدة تلمع ويقسم بالأيمان المغلظة أنه أرسل فى طلبها من المانيا وإنها جاءت باسمه رأسا . ولا تدهش إذا عثرت فى ركن من أركان الدكان على تلسكوب أو ميكروسكوب « يستعمل عدساته لإشعال السجاير من ضوء الشمس » أو مدفع متر ليوز من مخلفات الجيش .

ثم قد تجد نموذجا مصغرا لطنبور اخترعه أحمد العقلة ، يديره أمامك

ويفرجك عليه قطعة قطعة معددامزاياهالتى تتلخص فى أنه ينقل كمية أكبر من الماء ويمنع الفلاح من الإصابة « بالهاريسيا » .. وتتفرج عليه ، ولا تجد فيه أى شىء ممكن أن يميزه عن الطنبور العادى المستعمل فعلا ، وتقول لأحمد هذا فيبتسم دون أن يبتسم ، ويقول لك : اته .. اته .. اته .. اش اش فهمك ف ف الاختراعات .. ومع هذا فلو أعجبك الطنبور أو الميكروسكوب أو حتى ماكينة الحلاقة الواردة رأسا من ألمانيا ، فلا تنزعج إذا ناولها أحمد لك وأقسم بالله العظيم أنها : ما ماما هى عادت تابعاه ..

غير أن أهم شىء فى أحمد العقلة أنه لم يكن يطيق رؤية الأعوج ولا يصلحه . إذا رأى أن الكوبرى الذى يصل ما بين البلدة والمحطة مهدد بالانهيار ، فسرعان ما تجده قد خلع جلبابه وأدار عكازه كالسيف الطائح فى كل اتجاه ، وأحضر أخشابا وأسمنتا وحجرا لا تدرى من أين ، وأصلح الكوبرى . وإذا وجد كومة تراب تسد الطريق وتعاكس مرور العربات الداخلة إلى البلدة والخارجة منها ، فستجده حالا قد استعار فأسا من دار قريبة ، ونزل فى التل خبطا وعزقا حتى سواه . « كيف يستعمل الفأس وهو يرتكز على عكاز ؟ مسألة أخرى ». وإذا خربت طلمبة الجامع يضيق بمحاولات عم باز القاتلة البطء لجمع ثمن إصلاحها من المصلين ، وستجده حتما هو الذى لا يصلى ويتخلص بمهارة من المحاولات التى تبذل لحمله على الصلاة ، ستجده قابعا بجوارها يدق « قلبها » ثم يستمع ، وأحيانا لا تفعل محاولاته أكثر من أن تزيد فسادها فسادا ولكنه فى أحيان

يظل يقاوح حتى يصلحها .

إذا احتجت طعما لتصطاد السمك دلك على أحسن مكان تجد فيه الطعم ، بل فى أغلب الأحوال يستأذن منك دقيقة ثم يعود وفى يده كرة الطين المملوءة بالطعم . وإذا قلت إن نفسك فى الذرة المشوية مثلا ، فثق أنه لن يهدأ حتى يسرق لك ملء حجره ويشعل راكية نار ويشويها . وكل سعادته حينئذ أن يجلس يراقبك وأنت تلتهم الكيزان فى نشوة ، ووجهه قد احمر وسال منه العرق من كثرة ما هفهف على النار ونفخ وقلب الكيزان ، وإذا عزمت عليه أشاح بوجهه خجلا وقال لك بسعادة حقيقية : بل بل بل بالهنا والش ش ش فا . بالهنا والشفا .

وفى أى فرح لابد ستجد عكازه يرتفع وينخفض ويزق وينزق ، راقصا مرة ، حاملا العريس على كتفه مرة أخرى . وهو الذى ينصب الدولاب والسرير ، ثم هو الذى يعشى الناس ، ويزكيه الجميع ليقف على حلة اللحم المسلوق ، وتلك علامة الثقة المطلقة فى أمانته .. وفى أغلب الأحيان ينتهى الفرح دون أن يتعشى . وقد يسكت عن تضحيته هذه أياما ، ولكن سيرة الفرح لابد ستأتى ذات يوم فيفلت لسانه رغما عنه ويقول : ود ود ودينى ليلتها ما ما ما تعشيت ..

وأحمد العقلة له مع ساقه قصة مشهورة بدأت فى ذلك اليوم الذى جاء فيه مفتش الصحة للكشف على أحد المتوفين فى البلدة ، وانتظر أحمد حتى خرج وارتبك كثيرا وهو يحاول مواجهته والحديث إليه ، فقد كان به ضعف من ناحية الأطباء ، ويكن لهم بالذات احتراما لا مزيد عليه ، ربما

من يوم أن بتر أحدهم ساقه .. سأله أحمد عن حقيقة الإشاعات التى يسمعها وتقول إن مستشفى القصر العينى يركب لمبتورى الساق أرجلا صناعية مجانية ، وأحس الناس من سؤاله أن الموضوع الذى كانوا قد نسوه تماما لم ينسه أحمد للحظة واحدة . وأكد له الطبيب صحة الإشاعة ولكنه قال له كلاما يثبط أقوى العزائم ، فقد قال إن عمل ساق صناعية مسألة فى حاجة لجهود كبيرة وإقامة ووساطات لا قبل لأحمد بها ومن رأيه أن يريح نفسه ويوفر جهوده ، ولم يفعل أحمد شيئا أكثر من أنه ظل يهز رأسه ويقول : ك ك ك كتر خيرك .. كتر خيرك ... وانسحب من أمام الناس الذين التفوا حوله وحول الطبيب والإشفاق يجتاحهم وكأنهم قد أدركوا فى تلك اللحظة فقط أنه ذو عاهة وأنه يستحق الرثاء ، هو الذى كانوا يعاملونه باستمرار لا على أنه ند لهم فقط ، ولكن على أنه جبار وقوى لا يستعصى عليه شىء .

وتلفتت البلدة ذات صباح فلم تجد أحمد ، وقيل إنه سافر ، وقيل إنه سيغيب .

وفعلا غاب أحمد أطول مدة غابها ، حتى بدأت سيرته تطرق الأحاديث ، وتكاد مصمصات الشفاه تحدد له مصيرا تعسا مجهولا . ولكن مصير مين ؟ ذات عصر وجدوا أحمد نازلا من القطار ماشيا على رصيف المحطة كما يمشى الناس ، بساقين ، وجلابية بيضاء جديدة ، وكادت البلدة كلها تجتمع بشملها حوله تستمع لقصته التى كان يرويها بكلماته التى يخرجها تحت ضغط كغطيان زجاجات الكازوزة ، وتتفرج

عليه بعد أن جاء من مصر وعلى ساقه الجديدة الصلبة كالحديد التى لا يستطيع الإنسان أبدا أن يعرفها من ساقه الأخرى . ومن تلقاء نفسه كان أحمد يردد الحكاية وهو فرحان . سافر طبعا فى أول قطار بأبونيه الدائم فوق السطح ، وذهب إلى القصر العينى وسأل وقطع تذكرة ، وعرف اسم الطبيب الذى عنده الكشف ، بل ذكر للناس أسماء جميع أطباء القصر العينى ورتبهم مضيفا إليهم ألقابا خاصة من عنده هو . وسأله الدكاترة أين بترت ساقه ؟ وبعشرة قروش أثبت لهم أنه عمل العملية فى القصر العينى نفسه .. وقالوا له شهادات من الشئون الاجتماعية أحضر لهم شهادات ، تعهدات جاء بالتعهدات ، عفاريت زرق أحضر لهم العفاريت الزرق . وأخيرا وجدوا أن الطريقة الوحيدة للتخلص من إلحاحه وإصراره ومناكفاته أن يصنعوا له الساق ، فبدءوا يتخذون إجراءات صنعها ولكنهم أنذروه أنها ستأخذ وقتا طويلا ، ربما شهرا وربما أكثر ، فقال لهم : على مهلكم قوى .. معاكم لحد سنة واتنين ، وظل وراءهم حتى عملوها .. وها هى ذى . ولكن السامعين كانوا يتركون قصة الساق وتشغلهم أسئلة أخرى .. كيف وأين استطاع أحمد أن يقيم كل تلك المدة وهو الوحيد الساق فى البلدة الكبيرة التى يتوه فيها الناس ؟ فيقول أحمد ببساطة أنه كان ينفق على نفسه من متاجرته فى الزجاجات الفارغة التى كان يبيعها للمترددين على المستشفى ، وأحيانا كان يسرح بصندوق بيس أو برطمان تمر هندى .

ويبقى سؤال آخر أين كان يقيم ويبيت ؟

وتأتى إجابته :

ــ ف ف ف القصر يا ولاد ..

فيدهش الناس ويسألونه :

ــ داخلية يعنى ؟!

فيجيب وهو ضيق بغبائهم وبالسؤال :

ــ لا لا لا لا .. داخلية إيه ! ع ع ع الباب .

* * *

وبدأ أحمد يحيا فى البلدة مستمتعا بساقه الأنيقة الجديدة . واضطر لشراء حذاء لقدمه الأخرى فالساق الصناعية مجهزة بحذاء وجورب .. وحين أصبح من ذوى الأحذية وجد أن من المحتم أن يتخلى عن كثير جدا من الأعمال التى يقوم بها .. لا جرى ، ولا هزار ، ولا طلوع نخل أو نزول ترعة ، وهمه كله أصبح المحافظة على الساق الجديدة وإبقاء حذائها نظيفا ، وإبقاء جلبابه أكثر نظافة ليتلاءم مع نظافة الحذاء .. فلا نوم على الأرض ، ولا حلاقة إلا للزبائن النظيفين ، بل حتى هؤلاء الزبائن أصبح عليه أن يحلق لهم فوق كرسى إذ لم يعد بوسعه أن يتربع خلف الزبون أو أمامه على الأرض . والسهم الأهوج المندفع الذى كانه تضاءل وهبطت سرعته حتى أصبح يمشى كالناس العاديين وربما أبطأ ، محافظة على ساقه وتمسكا بالوقار الذى تفرضة عليه ، وحتى السفر أصبح المركز القريب هو آخر حدوده . وإذا سافر يركب كبقية المسافرين بتذكرة ، وصعود على مهل وهبوط باتزان وأدب .. وأفكار غريبة أصبحت تتناثر من فمه

لزبائنه الذين قل عددهم ومعارفه الذين قلت تحيته لهم وتحيتهم له ، أفكار بنعل ورباط وحمالات ، أفكار عن فانلات حمراء بأكام لا بدّ من اقتنائها ، ومحفظة تحفظ قروشه من الضياع ، وبدلا من الفنجرة والصرف على الأصحاب والشاى الذى يعبه طول النهار بغير حساب ، لماذا لا يحاسب ويوفر ويبدأ فى مفاوضة الحاج محمد على امتلاك الأمتار القليلة التى يقوم عليها الدكان ؟ وبدل الشحططة والمبيت كل ليلة فى مكان ، لماذا لا يبدأ يستقر ويبحث له عن زوجة كبقية خلق الله وقد زالت العاهة ولم يعد يخشى أن تنظر امراته إلى غيره من الرجال ؟ أفكار ومشاريع تكفلت بتعكير باله الرائق ومزاجه ، وتحويل ضحكاته العالية وقهقهاته إلى نوبات غضب وزعيق ، والطلمبة تخرب ويأتى عم باز يستعرضه ويرجوه فيخجل ويقول : حاضر يا عم باز . ولا يذهب ويكسل ثم يقول لنفسه ا اشمعنى أنا يعنى اللى اصلحها ؟ مانا زيى زى الناس . وما دام الناس يصلون ولا يصلحون الطلمبة أو يرفعون الأكوام من طريق العربات ، فليبدأ هو يصلى وليبدأ يفعل مثلما يفعل الناس . والناس تأكل وتلبس وتتزوج ويحيط كل منهم نفسه بما يحميه من ضربات الزمان ، فلماذا يشذ هو ويبعثر جهوده وما لديه دون خوف من ضربات الزمان ؟

بل المضحك أنه كان لا يغضب أبدا إذا عايره أحد بساقه المقطوعة أو أشار إلى عاهته على سبيل المزاح . كان يضحك ولا يحس أبدا أنه عوير أو أهين . من يوم أن ركب الساق وأقل إشارة إليه أو إليها تجرحه ، حتى

أصبح أشد ما يؤلمه أن يكون جالسا محترما فى مكان ويمد أحدهم يده خلسة ليتحسس ساقه ، وكثيرا ما يتحسس السليمة فيشتعل أحمد غضبا ويثور حتى صار له فى كل يوم خناقة وضرب وتحقيق .

* * *

وفى يوم وجدته البلدة عائدا من غيبة فوق سطح القطار ، ولم يهبط إلا بعد أن تحرك القطار . هبط هائجا كالزوبعة يجرى ويضحك ويطير وراء الناس كالمجنون ، حتى بدأ البعض يتساءل إن كان قد فقد عقله حقيقة . ولكنه لم يكن قد فقد عقله ، كان قد فقد ساقه الصناعية واستبدلها بعكاز من المشمش أيضا وقد أضاف إليه تحسينات .. وكان سعيدا جدا وكأنما أفرج عنه بعد سجن أو خرج براءة من اتهام ، يتطلع إلى البلد والناس وكأنه يراهم من جديد ، وكأنه المسجون حين تفك عنه القيود . وانهالت عليه الألسنة تسأله عن ساقه وأين ذهبت ؟ وقال أحمد يومها حكاية وعدل فيها ثم عاد ونفاها وروى حكاية أخرى ، وإلى الآن لا يزال يروى عن ساقه فى كل مرة قصة مختلفة . مرة يقول إنه كان جالسا على قهوة فى المنصورة واضعا ساقا فوق ساق ، وكانت الساق الصناعية هى العليا .. استرعت انتباه واحد من الأفندية المحترمين الجالسين وسأله عنها وفصلها له بخمسة جنيهات ليشتريها لأخيه المبتور الساق ، ومن هنا لهنا أوصل سعرها إلى عشرة ، ووجد أحمد الثمن معقولا ، ووجدها فرصة فخلعها وقال : خذها مبروكة عليك !

ومرة يقول إن أولاد الحرام نشلوا الساق وهو نائم بها فى منتزه فى

طنطا ، وأنه حين ذهب إلى القسم ليشكو للضابط نشل ساقه ظنه الضابط مجنونا وكاد يحيله إلى مستشفى المجاذيب ..

ومرة يقول إن له صاحبا كان يعمل سواقا فى بلاد فوق وحدثت له حادثة بترت ساقه فيها واستعمل العكاز ، ولكنه حين أراد أن يتزوج قصده ليستأجر منه الساق ليتواجه بها أمام العروسة وأهلها ، ولكن أحمد رفض أن يؤجرها له وقال : إذا كان سلف معلشى .. إنما إيجار لأ ..

وهكذا أخذها الصاحب على سبيل القرض وبلا رهن ، ولكنه بعد الفرح استحلاها وطمع عليها ولم يردها إلى يومنا هذا ..

أكثر من قصة يرويها أحمد عن فقد ساقه ، وينهيها دائما بضحكة عالية مدوية وبقوله : فى داهية .. دا دا كأن الواحد كانت رجله مقطوعة .

ثم يترك السامعين مبهورين ويجرى وراء واحد سبه أو خطف طاقيته أو ساهاه واستولى على الحقيبة الخشبية التى يحمل فيها عدة الحلاقة ، يندفع عكازه كالقذيفة الموجهة طائرا فى الهواء ، ثم يتبعه بجسده فى قفزات هائلة سريعة ترج الأرض .

شيء يجنن !

لست فى حل من ذكر اسم المدينة التى يوجد فيها ذلك السجن العمومى ، فالقصة لم تصبح بعد حكاية ولا تزال فى حكم الخبر الذى يتناقله النزلاء وموظفو السجن وأقارب هؤلاء وأولئك . وعلى أيه حال فالسجون العمومية ليست كثيرة والحمد لله ، بالكاد يوجد منها سجن فى عاصمة كل مديرية مخصص للمحكوم عليهم بالحبس أو السجن من المديرية نفسها وما يحيط بها من مراكز أو محافظات .

والبداية مثل فرنسى يقول فتش عن المرأة ، ولكننا لن نجد امرأة واحدة فى ذلك السجن العمومى فهو من النوع المخصص للرجال ، والأنثى الوحيدة المسموح لها بالتجول فى أنحاء السجن ليست امرأة ولكنها كلبة ، أو على وجه التخصيص كلبة المأمور . وللمأمور فى أى سجن عمومى منزل مقام داخل السجن لا تستطيع أن تفرقه عن بقية بناياته من الخارج ولكنه قطعا فاخر المنظر من الداخل ، ويحتل فى العادة مكانا قريبا من المدخل ، وله باب خاص ولكنه محوط بالسور الرهيب الذى يحيط بالسجن من كل جانب..

ورغم أن « ريتا » (وهو اسم الكلبة) كانت تتمتع فى السجن بحرية تحسد عليها ، إلا أنها ظلت سيئة الحظ لفترة طويلة ، لا لأنها الحيوان الوحيد الذى يحيا فى مكان كل ما فيه من البشر ولكن لسبب آخر ،

فكونها فى بيت المأمور داخل السجن كان يمنعها منعا باتا من الاختلاط بنى جنسها من الكلاب فى الخارج ، وبالذكور منهم خاصة . والظاهر أن المسكينة بعدما تعلقت بأهداب الصبر فترة طويلة لم تعد فى النهاية تستطيع ، وبدأت تفقد السيطرة على نفسها وأعصابها ، وساءت أخلاقها ، وأصبحت مصدرا لشكوى لا تنقطع من السيدة الشابة زوجة المأمور التى كانت تصغره بخمسة عشر عاما على الأقل . مرة تهاجم النملية وتبعثر محتوياتها وتدلق صفيحة السمن على الأرز ، ومرة ترفض الطعام ويظل لعابها يسيل بلا سبب واضح ، وليالى بطولها تمضيها فى عواء غريب وكأنها قد انقلبت ذئبة ، وأحيانا تضبط فى حالة استكانة غير لائقة لمداعبة أحد المساجين ، وأخيرا ذلك اليوم الذى هبهبت فيه بشدة فى وجه الولد الصغير حتى اصفر وجهه من الهلع ، وحتى اقترح المسجون العجوز الذى يخدم فى البيت أن (يرشوا) له فى المكان الذى روع فيه . فى ذلك اليوم بالذات أصرت الزوجة الشابة على أن يختار المأمور بين أحد أمرين : إما أن يتخلص من الكلبة بالتى هى أحسن ، وإما أن تترك له البيت والسجن بأسره . والمأمور مع أنه كان رجلا شديد التدين أسمر البشرة سمينا ذا لغد و (شامة) دائرية فى حجم القرش تحتل وجنته اليمنى ، إلا أنه كان شديد التعلق بريتا ربما لأنها من النوع الأصيل الذى يعتز المرحوم والده بتربيته (ووالده كان هو الآخر مأمور سجون ، وتعلم هواية تربية الكلاب من رئيسه الإنجليزى أيام كان الإنجليز هم الرؤساء فى كل شىء حتى فى السجون) شديد التعلق بها إلى درجة كانت تدفعه لمناقشات بالغة العمق مع واعظ السجن حول نجاسة الكلاب وأين

تكمن بالذات نجاستها ، مناقشات كادت تدفعه لإيثار مذهب الإمام مالك على أبى حنيفة الذى يتبعه ، لأنه سمع أنه مذهب فى بعض الروايات يبيح تربية الكلاب إذا كانت للحراسة .. ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه كان أيضا شديد التعلق بزوجته الشابة ، ولا يمكنه بأى حال أن يفرط فيها . كل ما حدث أنه رأى أن المشكلة لا تستدعى أيا من الحلين ، حلها واحد لا غير .. أن يعقدوا للكلبة على كلب . وكان باستطاعة ريتا أن تحصل على عشرات الكلاب الذكور بحركة واحدة من ذيلها فقط لو فتحوا لها باب السجن وتركوها تجرب حظها بالخارج ، ولكن المأمور كان لا يمكن أن يسمح لها بهذا العبث لخوفه أن يتلوث نسلها من ناحية ، ولأنه كان يتمنى لو استطاعت ريتا أن تنجب ذكرا من أب أصيل حتى يستعيض بابنها عنها ، إذ كان وجودها وهى الأنثى داخل السجن الرجالى الذى تتجول فيه كما يحلو لها قد بدأ يقلقه ويحس أنه وضع لا يمكن أن يرتاح إليه مأمور حمش مثله .

كان على ريتا إذن أن تبقى رهينة المحبسين (سجنها وحرمانها) حتى يقدر لها أن تظفر بكلب يعطيها نسلا أصيلا معروف النسب .

وشاء حظها الحسن ألا تبقى هكذا طويلا ، فقد كان بالسجن موظف محكوم عليه فى اختلاس اسمه فوزى واسمه المشهور به فى السجن فوزى بك ، وكان يعامل معاملة حرف ألف ويمضى طول النهار يتنقل بين مكاتب الموظفين بقامته الفارعة النحيفة وبدلة السجن التى فصلها له ترزى ونظارته السميكة ، ووجهه المسحوب الطويل طولا لا حد له حتى يكاد الناظر إليه يعتقد أنه إذا ابتسم لا بد أن يبتسم بالطول . وكانت

عائلة فوزى بك هذا تأتى لزيارته زيارة خاصة مرة كل أسبوع تتم عادة فى غرفة المأمور الذى كان ولوعا بحضورها وبالاشتراك فى أحاديثها ولو كانت عائلية أو خاصة ، وبانتهاز الفرصة كلما سنحت الفرصة لقرص ابنة فوزى بك الكبيرة ذات الستة عشر عاما فى خدها ، وخدها كان يشبه التفاحة شكلا ، ومن المؤكد أنه كان يشبهها طعما . فى زيارة من تلك الزيارات جاء كلب ضخم من نوع (الوولف) مع العائلة ، ومن لحظة أن وقع نظر المأمور عليه أدرك أن ريتا قد حلت مشكلتها وأنه عثر لها أخيرا على فارسها . وبالمناسبة كان الكلب اسمه فارس ، وإذا كانت الكلاب تقاس بما فيها من كلوبة فقد كان من الواضح أن فارس يتمتع بقدر وافر منها . وما كاد المأمور يعرض الأمر على فوزى بك حتى إنه لم يوافق فقط ، ولكنه أخذ يكيل للمأمور عبارات الثناء المنمقة على (بالغ عطفه) (وعظيم تواضعه) وتنازله بإسناد هذا الشرف إلى كلبه المتواضع ..

وهكذا بعد الزيارة أخذوا « فارس » إلى مخزن الملابس والمهمات ليحتجزوه حتى يحضروا ريتا . وكان المخزن حافلا بأكوام الملابس الجديدة والمستعملة والكهنة ، ولا بد أن الكلب أخذ يسلى نفسه بالقفز فوقها والتطلع من نوافذ المخزن العالية ، إذ بعد قليل سمعه النزلاء والحراس ينبح نباحا شديدا ويحاول دفع رأسه بين حديد النوافذ ليغادر المخزن . ولا يعرف أحد للآن على وجه الدقة ماذا رآه الكلب بالضبط وأثاره ، فالمخزن كان يطل من جهته الخلفية على فناء السجن الداخلى حيث كان المسجونون حرف ب فى حالة (طابور) أى فى حالة فسحة .. ربما

مشهد المئات منهم ببدلهم الزرقاء ذات السراويل التى تقصر أحيانا فلا تكاد تصل إلى الركبة وتطول أحيانا حتى تجرجر على الأرض ، والتى يبدون فيها على هيئة بشعة تكاد بشاعتها تبعث على الضحك ، أو ربما تكون (الزيارة من خلال السلك) تلك التى يقف فيها مئات الأهالى فى ناحية وعشرات المساجين فى ناحية أخرى ويحشد كل منهم طاقته فى صوته ليصرخ ويشتاق ويسلم لتصبح الزيارة مظاهرة مجنونة حافلة بالأيدى المشوحة والاستغاثات والدموع ، ربما هو مشهد الخارجين للمحاكمة الجالسين القرفصاء ببدلهم القذرة على الأرض فى تشابه لا تكاد تميز فيه شخصا عن شخص ولا بدلة عن تراب ، ربما هو الجو العام للسجن الذى يطبع كل شىء بطابع غريب مرير ويبدو فيه المساجين آلافا من البقع الزرقاء والبيضاء المنتشرة كالجراد البشرى مرصوصة على الأرض تقطع الطوب ، متعلقة بالحيطان تطليها وخالعة ملابسها تسلك المجارى وسائرة اثنين اثنين وبين كل اثنين جردل فيه ما فيه من ماء أو « يمك » أو قاذورات . أو لا بد أن التى أثارت « فارس » هى القضبان .. فى كل مكان قضبان وكل شىء بينك وبينه قضبان .. بعض الناس قالوا إن الذى أفقد الكلب صوابه كان منظر أرغفة عيش السجن . وقال آخرون بل هو إحساسه أن الباب أغلق عليه وأصبح أسير الجدران . المهم أن الكلب ظل نباحه يرتفع ولا يترك فرجة فى المكان إلا جرب فيها نفسه وجسمه حتى زرق من خلال فتحة التهوية فى المخزن ، وقفز المسافة الكائنة بينه وبين دور تسعة ، ومنه إلى سور المسجد ، إلى الخلاء . وحدث هذا قبل أن ينتبه أحد ، بل دون أن ينتبه أحد ،.. فالحقيقة أنهم

لم يكتشفوا هربه إلا حين ذهبوا يفتحون باب المخزن وقد أحضروا ريتا .

هاج المأمور طبعا ، وكادت الشامة اللاصقة بوجنته تقفز غضبا وتخترق عين السجان الذى ذهب يبلغه بما حدث . وأسرع فوزى بك يعتذر عن تصرف كلبه ويعد بإنزال العقاب به وتوصية الأسرة بحرمانه من الطعام . وظل طوال الأسبوع كلما قابل المأمور يعتذر ، حتى حان موعد الزيارة التالية ، وجاء الكلب مع العائلة ، ونبه المأمور زيادة فى الاحتياط بأن يحجز الكلب فى إحدى الزنازين الانفرادية التى يوضع فيها كبار المجرمين إذا عصوا أو أذنبوا ، وخصص لحراسته أرذل سجان فى العنبر . ولتسهل المهمة أكثر وضعت ريتا فى الزنزانة هى الأخرى حتى لا يضيع الوقت فى البحث عنها . وأخذ فارس بعد الزيارة من صحبة العائلة إلى الزنزانة حيث أدخل فيها بخدعة وأغلقوا عليه الباب ، ووقف السجان يراقبه من خلال (العين) الموجودة فى الضلفة . وما كاد الباب يغلق على الكلب ، ويدرك أنه أصبح سجين جدران أربعة حتى راح يهبهب دون أن يعير ريتا أقل انتباه وكأنه لا يراها ، ثم تحولت هبهبته إلى عواء ، وما لبث السعار أن انتابه فمضى يقفز ويجرى فى اتجاه النافذة وينشب أظفاره فى الضلفة ويخربش الحائط ، بينما علا نباحه حتى كاد يصم الآذان . وكلما أوغل فى محاولاته انكمشت ريتا على نفسها وانكمشت واضعة ذيلها بين فخذيها محتلة من ركن الحجرة القصى أصغر مساحة يمكنها أن تحتلها ، تاركة بقيتها لهذا البركان الهائج . ظل الشاويش يراقبه منتظرا أن يعقل ويهدأ بلا فائدة ، كلما كان الوقت يمتد كان سعاره يزداد والزبد الذى حول فمه يتكاثر . وجرى الشاويش بالأخبار إلى

المأمور ، وسبه المأمور قائلا إنه هاج لأنه لا بد جائع ، وأمره بأن يقدم إليه ثلاث قطع كبيرة من اللحمة التى يأكل منها المساجين ، وعاد الشاويش مهرولا لينفذ الأمر غير أنه ما كاد يفتح الباب ليلقى اللحم حتى فوجئ بقفزة هائلة من الكلب وثب فيها على أكتافه وألقاه أرضا وبقفزة أخرى كان قد أصبح خارج العنبر ، وبثالثة كان قد أصبح خارج السجن ومضى يجرى ويجرى مبتعدا لا يلوى على شيء .

و لم تكن السقطة وحدها هى كل الجزاء الذى حل بالشاويش ، فقد أقسم له المأمور بشارب أبيه أنه لن ينساها له ، وأنه سينتهز أول فرصة وينقله إلى سجن الواحات . بل شمل غضب المأمور فوزى بك نفسه ، واستمع الرجل للتأنيب وهو صاغر ، وحاول أن يعتذر فرفض اعتذاره ، و لم يسمح له المأمور بفرصة إلا أن يرسل فى طلب الكلب فورا وإلا كان ما كان .

وأرسل أحد السجانة إلى منزل عائلة الرجل ليحضر الكلب المارق . ولكنه عاد يقول إن الكلب لم يعد بعد ، وأن العائلة تقضى وقتا عصيبا فى انتظار عودته . وأرجعه المأمور إليهم ليخبرهم بأن عليهم إحضار الكلب متى عاد ، وفى أى ساعة يعود ولو كان فى منتصف الليل . و لم يعد الكلب للعائلة إلا بعد انقضاء يومين يبدو أنه ظل تائها فيهما فى المدينة ، وخضوعا للأوامر أحضروه وكانوا قد استعدوا له هذه المرة ، فأمر المأمور بإدخاله حين حضوره مع ريتا فى الفناء الداخلى لسجن التأديب ، وهو فناء تحيطه الزنازين من كل جانب ، وسقفه مصنوع من القضبان ، وبابه من حديد وقضبان أيضا ولا يمكن أن يهرب منه أبدا . وكان على

الكلب أن يبقى مع ريتا فى هذا الفناء حتى يتم كل شيء على أن يقدم لهما الطعام والماء خلال المسافات الكائنة بين القضبان ثلاثة عساكر بالبنادق ؛ على رأسهم شاويش التأديب المعروف بقسوته وجرأته .

وتم كل شيء تماما وفق ما أراد المأمور ، ولكن الكلب بدا كأنه فقد عقله نهائيا هذه المرة ، فقد قضى يوما بطوله ينبح ولا يكف عن النباح ، وفى الليل لم يدع أحدا يغمض جفنه لا فى فناء السجن ولا فى بيت المأمور ، وقرب الفجر أحس الديدبان بحركة فى سقف فناء التأديب ، وقبل أن يصرخ ويقول (م اللى هناك) كان الكلب قد أرغم جسده على المروق بقوة جبارة خارقة من خلال المسافة الصغيرة الكائنة بين حديدتين ، وفى ومضة كان يقفز من سقف إلى سقف إلى خارج السجن .

ولم يعد لمنزل العائلة لا ليلتها ولا ما تلاها من أيام وليال ، وبحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه أبدا ، كان بلا ريب قد غادر المدينة كلها إلى غير رجعة .

آخر الدنيا ...

حين ذهبت شمس الشتاء الصغيرة وجاءت الشمس الكبيرة وهبت نسمات الحر تؤذن بقرب الامتحان .. كان أهم ما يشغل باله هو ضياع تلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف ذات اللمعة الهادئة الوقورة والنعومة الخشنة التى يبعث ملمسها الفرحة والأمان .

وحين رجوعه إلى البيت وقد ضعضعته رحلة العودة وملأت جسده النحيف الأصفر بالعرق الصغير الأبيض ، مد يده فى جيب البنطلون وحين لم تلمسها كذب أصابعه وعاد يمدها ، وكلما أكدت الأصابع أنها غير موجودة ازداد تكذيبا لها .. ولم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش جيوب البنطلون كلها والجاكته والجلباب ومكان وقوفه ، وكل بقعة من أرض الغرفة المظلمة التى لا يأتيها النور إلا من كوة صغيرة قرب السقف .. لم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش الحجرة وما فيها بحرص وإمعان وكأنما يفتش كفه .. ولم يجدها .

حينئذ فقط كانطلاق الاستغاثة فى ريف ساكن ، كالخبر القاصم للظهر .. كالمصيبة المفاجئة ، أدرك أنها ضاعت ولم تعد فى حوزته .. ووجد نفسه ينهار على الأرض نصف خالع لملابسه ، وهو لا يعرف شيئا ولا يفكر فى شيء ولا ما يجب عليه أن يفعل ، وكأن عقله ضاع منه أيضا .. وطالت الجلسة وامتدت وهو يحس بها وكأنها لم تبدأ وكأنها

جريمة أن يتحرك .. لم يبدأ يتحرك إلا حينما بدأ صوت رفيع يعلو داخله ويقوى ويؤكد له أنها أبدا لم تضع وأنها لا بد موجودة فى مكان ما ، وما عليه إلا أن يجد المكان ليجدها ، هنا فقط تحرك وأكمل خلع بذلته وأكمل ارتداء جلبابه وعاد يفتش الحجرة ومحتوياتها من جديد ، ثم خرج إلى فناء الدار الواسع غير المنتظم ، وصعد إلى السطح ، وبعود من الحطب عسعس فيما أمام البيت من تراب ، بل الكناسة أيضا فرزها بالعود وبعينيه وبكل قدرته على التمييز .. ولكن بحثه فى كل تلك الأمكنة كان نوعا من أداء الواجب .. لم يكن قد فقد شيئا قبل الآن .. فلم يكن أبدا قد امتلك شيئا .. ولهذا فهو لم يجرب أيضا أن يبحث عن شيء ، ولا أحس أبدا بهذا المزيج الغريب من الأفكار التى تفزعه ، ويطردها فتعود أقوى فيكاد يبكى مخافة أن يكون ما يحدث له هو الجنون الذى يرسلون من أجله الناس إلى السراية الصفراء ..

لا يهم الآن أين هو أو ماذا يفعل ، ولا إن كان قد قدر له أن يظل حيا إلى يومنا هذا فربما عاش واغتنى وبنى لنفسه قصرا وأحس بأهمية أشياء كثيرة ، ولكنه أبدا لا يمكن أن يكون قد أحس بمثل الأهمية التى أحسها يوما ما لتلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف .. ليس لأنها أول نقود أعطاها له أبوه .. فأبوه كان دائما يعطيه أشياء كلما جاء لزيارتهم .. والحقيقة أنه لم يكن يأتى كثيرا .. كل بضعة شهور مرة .. يفاجأ حين يعود من المدرسة بصوته الحبيب يأتيه من وراء الباب قبل أن يفتح له الباب .. أو يكون الليل قد استتب وسكنت الأصوات كلها ثم مر قطار آخر الليل بصفيره الحزين النعسان .. ومرت بعده دقائق ، وإذا بالقبضة

تدق على الباب ، وبالصوت أحب صوت يقول : افتحوا أنا فلان .. ولهذا فما من مرة كان يعود فيها من المدرسة ويطرق الباب،وما من مرة يفوت فيها آخر قطار إلا ويستجمع نفسه استعدادا للمفاجأة ، واستعدادا لما قد يعقبها من خيبة الأمل ..

وإذا جاء أبوه أخذه تحت إبطه واحتضنه وقبله قبلة سريعة فى خده ، ودس يده فى جيبه وأخرج له شيئا : حبة كراملة .. قلم رصاص جديد غير مبرى ، وأحيانا يدس يده ولا يخرج شيئا ويحس بأبيه محرجا فيفتعل سببا ويختفى لينقذه من الإحراج .. وفى كل مرة يأتى يظن أنه قد استحوذ عليه أخيرا وأنه لن يفلت منه أبدا ، وفى كل مرة يحدث ما يؤلمه فيعود من المدرسة أو من الخارج ليجد أن أباه قد ساهاه وذهب . يدور فى أنحاء البيت ويصعد إلى السطح ويجرى إلى الجامع يفتش صفوف المصلين الراكعين أو الواقفين .. أو حتى الساجدين الذين قد اختفت كل معالمهم ولم تبق لأيهم سوى قدم واحدة واقفة تسند الجسد ، وبلمحة واحدة يلقيها على الأقدام كان يدرك أن أيا منها ليست قدم أبيه ..

ويلهث حينئذ إلى المحطة لعله فى مكان ما من البلدة لم يسافر بعد ولا بد سيأتى لركوب القطار ، وتمر القطارات ذاهبة وآتية ولا يظهر له أثر ، حتى إذا ما مر قطار الرابعة تملكه اليأس الكامل وجازف بنفسه ومر من أمام « الراس » فى طريقه إلى البيت يكاد يبكى .. وأحيانا يبكى ويحس أن البكاء لا يعبر أبدا عن ضيقه ، وأن الحل الوحيد أن يساهيه القطار ويظل يدهمه ويدفعه حتى يوصله إلى بعيد .. أبعد بعيد .. آخر الدنيا .

ويصل البيت وتسأله الجدة أين كان . فيتخابث هو ويسألها أين

أبى ؟.. فتجيبه بتلك الكلمة التى يحس بها كزلطة السكة الحديد حين تدق الرأس : سافر . لكم كره السفر وتمناه فهو الذى يأخذ أباه منه وهو أيضا الكفيل بأن يذهب به إليه .. وكأنما تتذكر الجدة .. إذ لا بد أن تعنفه على شيء حدث فى أثناء زيارة أبيه .. ثوب متسخ ، أو شحوب زائد عن الحد ، أو كلمة شكوى تفوه بها ، وبيد جافة معروقة تأخذ أنفه بين أصبعيها لتمسحه وتعلمه النظافة ، وإن تململ ثبتته فى مكانه بقرصة أذن ، وإن قال : « يا اما » لكزته قائلة : اسكت يا ابن النجسة .. ويحس بالخجل الشديد كأنها عرته أمام الناس ، ومع أنه يعلم تماما أن جدته فظة المخارج فقط ، وأن كلامها مع الجميع شتائم ..

ويحين العشاء .. والعشاء دائما خضار من الغيط مسلوق أو أرز بالتقلية ، والطبلية تزدحم بأيد كبيرة خشنة ، وحتى النساء اللاتى يخجلن فى حضرة الرجال لا يخجلن ساعة الطعام ، ويروح الكل يأكل فى نهم ، والأيدى تتسابق بلقم كالفئوس تفرغ الغموس فى ومضة ، ويده صغيرة كيد القطة يمدها خلسة ويدعى الأكل ،خائفا أن يدرك أحد أن الطعام لا يعجبه وأنه دلوعة وأنه طفل ، فالجميع كبار يعاملونه كالكبير ، ولا يمكن أن يجعلهم يتصورون أنه صغير ، ولا تكون به حاجة للادعاء فلا أحد يفطن إليه والكل مشغول عنه ، والقطط وحدها هى التى تهرب من القبضات الساحقة الزاجرة وتستهيفه وتتكاثر عليه ، تمد يدها قبل يده فإن حاول سبقها زجرته وماءت فى وجهه وأخافته .

.. وفى أحيان يضيق بالعشاء ويروح يتصور عشاء آخر مع عائلته الحقيقية وإخوته الصغار والكبار ، فلا بد أن له إخوة ولا بد أنهم يتناولون

الآن طعاما أحسن وأبوه يأخذهم تحت ذراعيه ويهدهد عليهم ، وأمهم — أمه — تدللهم وتطعمهم .. لا بد هذا رغم كل ما تقوله الجدة وتقسم عليه ، رغم تأكيدها بأنه لا إخوة له ولا أم أنه شيطانى .. مرة انتابه العناد وظل يبكى ويطالب الجدة أن تدعه يذهب إلى إخوته وأمه ، وحين لم يفلح فيه زجر أخذته الجدة فى حضنها وقبلته وقالت له وهو يرى الدموع فى عينيها إن أمه سرقها حرامى ذات ليلة من أبيه ، وأن لا فائدة من بكائه أو إصراره إذ لا أحد يعرف مكانها أو أين تقيم ، وأنها هى أمه الحقيقية التى سيعيش معها إلى الأبد .. ليذهب كالشطار إلى المدرسة ويتعلم ويصبح غنيا وأفنديا كالبهوات . وحين حاول المحاولة الأخيرة وطلب أن يذهب إلى مدرسة من المدارس القريبة من أبيه ، ضمته الجدة وهى تخبره أن لا مكان له عند أبيه ، إذ هو يعمل هناك بعيدا جدا بينهم وبينه أسفار وأسفار ..

— عند آخر الدنيا يا جدتى ؟

— تماما هناك يا بنى .. مكانك معى هنا لتكون قريبا من المدرسة .

ورغم هذا فلم تكن المسافة بين بيت جدته والمدرسة تقل عن الأربعة كيلو مترات ، يصحو لها من الفجر .. توقظه العمة أو زوجة العم التى يكون عليها الدور فى جلب الماء من الترعة ، وتصب عليه من إبريق فخار ذى ماء مرصرص يوقف شعره ويدمى فروة رأسه ، ويظل لا عمل له طوال الطريق إلا النفخ فى يده ، ويجرى حتى لا يتأخر والطريق مضبب نصف مظلم وطويل لا نهاية لطوله ، ويقطعه وحيدا فزملاؤه لا يصحون فى هذا الوقت المبكر ، ومع هذا يسبقونه إلى المدرسة وقد أركبهم آباؤهم

ر كائب أو قطعوا لهم تذاكر بتعريفة فى أول قطار . ودائما يصل والطابور واقف ، ولا بد له كل يوم من خيزرانات أربع أو خمس .. للتأخر أو لقذارة الحذاء أو لعدم الحلاقة .. وبأيد صغيرة ورمها البرد وخدرها الضرب ، وبأذن حمراء بالزمهرير وما تيسر من القرصات ، وببدلة جرباء كالحبة وركب مسلوخة وشبه حذاء ، يدخل الفصل منكس الرأس ، وربما لهذا كان يطلع الأول .. دائما الأول ، ودائما هو أكثر التلاميذ انتباها .. ربما لكيلا ينتبه إلى نفسه ويخجل . فى فسحة الغداء فقط يعود رأسه ينكس ، حين يترك غيره يذهب إلى المطعم أو الكانتين ويذهب هو ليبحث هناك عند آخر السور على منديل الغداء الذى طبقوا له فيه الرغيف على قطعة الجبنة ، والذى كان يخفيه بجوار السور ويتكفل لونه الذى لا يختلف عن لون الأرض بحفظه من الضياع . وما أعمق الراحة التى كان يحسها حين يدق آخر جرس ، إذ معناه أن تبدأ رحلة العودة .. نفس الطريق الذى قطعه لاهثا مذعورا يعود منه الهوينى وبالهوينى يحلم ما يشاء من الأحلام ، وقد لا يحلم أبدا ويظل طول الطريق سعيدا يكاد يطير ، فقط لإحساسه أنه هنا يستطيع أن يختار أى حلم ويحلم به .. وأى هدف ويحققه ، هنا يستطيع أن يعثر على أمه ويستحوذ إلى الأبد على أبيه ، ويسافر إلى آخر الدنيا ويجد الكنز وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين .

وفى نفس طريق العودة هذا فقد كنزه الحقيقى ، القطعة ذات القرشين التى أعطاها له أبوه فى زيارته الأخيرة .. وقبل أن يغيب غيبته التى طالت وأسالت دموع جدته مرارا ، ويسمع الهمسات أنه لن يعود إلى البلدة مرة

أخرى .. أشياء لم يكن يحفل بها فالهاتف الذى فى نفسه يؤكد له أنهم جميعا يكذبون عليه فمن المستحيل أن يتركه أبوه هكذا ولا يعود إليه . بل هو لا يعرف تماما لماذا أبطل التفكير فى أبيه ووضع همه فى القطعة ذات القرشين .. صحيح كان يدرك أنها نقود ولكنه يدرك بالسمع ، فهو لم يشتر شيئا و لم يبع ولا امتلك قرشا أو مليما فى حياته ووضعه فى محفظة أو كيس ، بل لم يكن قد امتلك أبدا شيئا لنفسه .. البدلة والكراريس والأقلام كانت أشياء يعطونها له ليذهب إلى المدرسة ، والأشياء التى كان يعثر عليها أحيانا ويحفظها ويصنع لها صندوقا ويضعها فيه كان يدرك من أعماقه أنها بغير قيمة ويستغرب حرصه على إبقائها عندهواعتنائه بها ، فهو لا يتحمس لها إلا حين تضيع أو يكتشف ذات مرة أن جدته تخلصت منها .

القطعة ذات القرشين أو « أم أربعة » كما كانت الجدة تسميها ، كانت شيئا آخر . لأول مرة فى حياته أحس أنه أصبح مالك شىء ذى قيمة عظمى ! إنها ليست نكلة أو ربع قرش أو تعريفة أو غير هذا من القطع التى كانوا يسمحون له بإمساكها فى يده أو التفرج عليها .. إنها قرشان بحالهما ، فى قطعة من الفضة ، الفضة التى يسمع الناس يتكلمون عنها باحترام لا يعادل إلا احترامهم للذهب .. أيام أن أعطاها له أبوه لم يكن قد أحس بأهميتها ، كان مشغولا كالعادة بخوفه من أن يسافر وبالضيق الذى ينتابه حين يسافر والأقاويل التى أعقبت سفره ، حين بدأ يفطن إليها وإلى أنها ملك خالص له لا يشاركه فيه أحد كاد ينسى أباه والدنيا وكل ما فى حياته .

وظلت معه طوال الشتاء .. إذا عاد من المدرسة كان يضعها فى كيس صغير خيطه بنفسه لأجلها ويحكم وضع الكيس فى جيبه .. كلما خرج من البيت تحسسها .. كلما جاء عليه الدور فى لعبة ــ ضربونا ــ اطمأن لوجودها . ولا ينام إلا إذا ملس عليها ، ويستعجل اليقظة ويصحو فرحا لأنه من جديد سيضغطها بين أصبعيه ويقلبها ويستمتع مرة أخرى بلمس خشونتها . إذا ارتدى البدلة نقلها إلى جيب البنطلون ، وقبل أن يخلعه يكون أول ما يفعله أن يعيدها إلى الجلباب . وأغرب شيء أنها وهى معه ويتحسسها طوال الطريق كان يحس بالدنيا دافئة وبخطواته أسرع ، وحتى إذا ناله على التأخير ضربات وتورمت يداه فقبل أن يدخل الفصل كان يناضل لكى تستطيع أصابعه التى فقدت حركتها وإحساسها أن تطبق عليها ، وحين تنقل إليه الأصابع حجمها مبالغا فيه ومضاعفا وملمسها مخالفا مغايرا وكأنما تورمت هى الأخرى وفقدت الإحساس ونالت خيزرانات ، حين يحدث هذا فى التو كان يذهب الألم عن يديه والمهانة عن نفسه . وفى الفصل إذا استعصت عليه الإجابة استنجد بها ، وإذا خانته الذاكرة وأخطأ وأحس بالمذلة تعزى بأنها على الأقل معه فى متناول يده . وتركزت أحلامه فى طريق العودة حولها .. أحيانا يتصور أن أناسا يعرضون عليه مائة جنيه ليأخذوها ، ورغم إدراكه أن الجنيهات المائة مبلغ لاحد لضخامته فإنه إذا وصل فى أحلامه إلى مرحلة التنفيذ لا تطاوعه نفسه فيرفض ، ويرفض حتى مبلغا أكبر .. ويقول الناس عنه إنه مجنون ويسألونه كيف لا يقايض عليها بمائة جنيه وأكثر فيعجز هو عن تقديم السبب ، إذ هو نفسه لا يستطيع أن يعرف لماذا يحبها كل هذا الحب

ويفضلها على مال الدنيا كلها ، وحتى على مصباح علاء الدين !

وحين يستعرض فى الطريق مخازى اليوم ، ودائما كانت له كل يوم مخاز ، ويتذكر نظرة مدرس الجغرافيا « الملظلظ » السمين ذى الحذاء البنى الذى لم تر عيناه شيئا فى مثل لونه البنى الجميل ولمعته التى تخطف البصر ، ونعله الثخين السميك المحلى حين يتصل بالجلد بعدد لا نهاية له من الخطوط الدقيقة القصيرة المتوازية — أعظم ما كان يتمناه فى حياته أن يرتدى حذاء بمثل تلك اللمعة والنظافة — حين يتذكر نظرته إليه النظرة التى كلها اشمئزاز وكأنه ينظر إلى دودة أو بصقة — وكلامه عنه وعن أبيه ، وبصيغة الجمع ، وعن أبيه بالذات وفقره وفقرهم وكأنهم مصابون بداء منفر تتقزز له النفس اسمه الفقر — حين يتذكر ضرب التلامذة الكبار له وقذفهم الحبر على بدلته ، وجاره ابن عامل تليفون هندسة الرى الذى ترك له التختة وحده وذهب إلى تختة أخرى هامسا فى أذن جيرانه بأنه لم يعد يطيق رائحة البصل والمش التى تفوح منه ، حين يطارده لقب « أبو ضب » الذى أطلقوه عليه ظلما حتى آمن به وبدأ يفكر فى وسيلة لانتزاع أسنانه — حين يستعرض ويضم نفسه على نفسه وكأنما يريد أن يخفى نفسه عن نفسه ، لا يبدأ ينسى ويعود يحلم ويسعد إلا حين يتذكرها ويدس يده كالملهوف ويطمئن عليها .

وفى ذلك اليوم حين خلع البدلة وعرف أنها ضاعت ، وظل ما تبقى من اليوم منحنيا يبحث أو نائما على بطنه يخترق الظلام بأنظاره ويتأمل ، وأوى أخيرا إلى مضجعه بين الأجساد الكثيرة التى تحفل بها وبنفسها وشخيرها الغرفة ، كان كل ما يشغل باله قبل أن تغمض جفونه أنه —

بعد ـــ لم يجدها . وحين استيقظ ومد يده مرة واحدة إلى الكيس عن بعد وتلمس جميع أطرافه ، استعد لصرخة فرحة وأطبق يده مرة واحدة على الكيس ولكن يده لم تطبق إلا على الهواء وكان الكيس كالأمس لا يزال فارغا ، تورم قلبه وتمدد يحتل كل صدره ويكاد يوقف أنفاسه عن التردد . ما فائدة الصباح الباكر أو المدرسة أو أن يكون الأول ويصبح كالبهوات إذا لم يجدها ؟

ومضت أيام كثيرة .. خميس وجمعة وراء خميس وجمعة ، وما فعله فى اليوم الأول كان يفعل بعضه فى الأيام الأخرى فيعيد تفتيش الدرج أحيانا أو يتأمل البقعة التى يقف فيها حارسا لمرمى فريق الكرة الزلط ، أو يعيد تقسيم الحوش إلى مربعات جديدة يتفحصها إصبعا إصبعا مضت أيام وعاد يضحك ويحزن ويلعب (ضربونا) ، ويعانى من خشونة الجدة وخيزرانات المدرسين ولكنه كان وكان شخصا آخر هو الذى عاد يفعل كل هذا، شخصا لا يفرح ولا يحزن ولا يجد فى الألم ألما ولا فى أحلام العودة سعادة ، أما شخصه هو فقد ظل دائما معها وكأنها كانت تمتلكه وحين ذهبت أخذته وأخذت انتباهه وكل إحساسه . كلما فتح فمه ونطق شيئا ، كلما كف عن الحديث وسهم ، كلما أحس أنه يريد أن يفكر ، كلما بدأ يضحك ، كلما صادفته سعادة صغيرة .. حبة طماطم أو أستيكة يكافئه بها مدرس الحساب على معضلة ، كلما أحس بالعضة وأدرك مفجوعا أنها ضاعت وأنه لا يزال لم يعثر لها على أثر ،وهنا ومن جماع نفسه وبكل ما يمتلك من عناد وتصميم كان يهتف ويكاد يصرخ ويسمع الناس أنها لم تضع ، أبدا لم تضع ، فلا بد أنها موجودة فى مكان ما من

الدنيا تنظر منه أن يعثر على المكان فيعثر عليها .

وفى يوم وقد مضى الشتاء وبدأت الدنيا تحفل بالشمس الكبيرة والحر ورائحة الامتحان ، كان عائدا ما كاد يخلع الجاكتة ويلقيها ويلتقط أنفاسه من رحلة العودة حتى تذكر — هكذا — وكأن يدا لا يعرفها امتدت ووضعت الفكرة فى رأسه ثم تلاشت ، تذكر أنه فى اليوم الذى فقدها فيه تماما كانت نفسه قد زينت له أن يحصل على بضع كيزان من التين الشوكى المزروع فوق جسر السكة الحديد ، وأنه لأول مرة خالف نصيحة أبيه الذى كان يوصيه على الدوام بألا يصعد إلى الجسر أبدا ، وأن يمشى على الناحية المحاذية للخليج من السكة الزراعية بحيث إذا ميلت عليه سيارة قادمة يصبح بإمكانه أن يخوض فى الخليج الضحل ، يومها خالف النصيحة وصعد إلى الجسر وزاغ بصره بين الكيزان الناضجة الصفراء كالكهرمان وبين جلباب عم على الأسود الذى يشترى التين من المصلحة ويحرسه ويبيعه. لا بد أنه فى خضم خوفه واضطرابه ومحاولته أن يحاذر الشوك وأن يفك ملابسه بطريقة يدعى بها لعم على أنه يقضى حاجته فيما لو ظهر له فجأة ، لا بد أنها سقطت منه فى ذلك المكان ولا بد أنه لم يع وهو فى حالته تلك بسقوطها .

ورغم أن الأمر كان مجرد فكرة بعيدة الاحتمال ، أبعد منها أن تكون قد ظلت فى مكانها تنتظره طوال تلك الأسابيع هى الجديدة أو تكاد ، ذات اللمعة رغم هذا ، إلا أن الفرحة التى اجتاحته أغرقت بفيضانها أى تردد أو شك ، فرحة حقيقية جعلته يدرك أنه لم يكن يفرح ، وحين انطلق يجرى بالقميص والبنطلون قافزا فوق جدته التى كانت تجلس على عتبة

الغرفة تلضم عقود « البامية الناشفة » أحس أيضا أنه لأول مرة يجرى أو يمشي أو يتحرك ، أو يهمه الجرى والتحرك . ودون أن يعى كان قد حدد لنفسه ما يجب عمله ، فالتين الشوكى مزروع بطول الأربعة كيلو مترات التى يستغرقها الجسر ، وهو يعرف فى أى بقعة بالذات قام بمغامرته .. ولهذا فسيمسك الجسر من الأول من محطة البندر إلى أن يجد البقعة . ولم يلتقط وعيه بنفسه ولم يبدأ ينظر إلى الشيء المحدد إلا حينما أصبح وكأنما بسرعة البرق عند محطة البندر . ونظر إلى الجسر الطويل واستعذب النظر ففى مكان منه سيجدها ، ولا يهم الطول فكلما طال البحث امتدت النشوة ، وأيضا لا يهم أنه للمرة الثانية يخالف نصيحة الأب وتحذيره بأن القطار لو فعل سيقطعه قطعا قطعا .. أكبر قطعة منها فى حجم القرشين .. فهو للمرة الأخيرة يخالفها ولا خطر هناك ، فالساعة بالكاد قد بلغت الثالثة وباقى على القطار القادم .. قطار الرابعة ساعة ، والأمر لن يأخذ دقائق .

* * *

وقدما قدما فوق الفلنكات الخشبية مضى يتحرك ويتوقف ويجول بعينيه خلال الزلط الكثير ، عشرات الزلطات ومئاتها وآلافها ، ثم ينحنى ويتفحص جذور التين وأوراقه الجافة ثم يعود للسير ، ولكنه كان يدقق ويتفحص لأداء الواجب ليس إلا ، فقد كان يعتمد على انفعال ما سينتابه حين يصبح عند البقعة التى قام فيها بمغامرته ، إذ رغم أن تينها لا يختلف عن غيره فى طول الجسر ، وزلطها لا يختلف عن الزلط ، إلا أنه متأكد أنه لو رأى ألواح التين وأوراقه وشجرته التى أخذ منها فى الحال سيعرفها .

وهكذا مضى يزحف قدما قدما ينظر أداء للواجب ، ويتأمل الأوراق والبقع منتظرا أن تحدث له الاختلاجة التى يترقبها ، وحين لا تحدث يتقدم خطوة أخرى فرحان فقط لأنه أخيرا يعود للبحث عنها ، سعيد بتضييق الخناق عليها ، يود لو لم يحدث صوتا حتى لا تحس به وتفر .

وترك السيمافور خلفه وعدى الكوبرى ، وبدأت أعصابه تتوتر وكأنها تستعد للاختلاجة الكبرى ، وأصبح يدقق إلى الدرجة التى لا يرفع عينيه عن الزلط إلا حين يبدأ الزلط يسبح أمام عينيه ويدور ، ولا يترك شجرة التين إلا حين يحس بأشواك أوراقها تكاد تلمس عينيه ، وفجأة اختلج جسده وتوالت دقات قلبه وعرق وأحس بروحه تنسحب إلى أسفل وعاد يدير عينيه فى البقعة ويزداد جسده اختلاجا ودقا وعرقا . بالضبط .. هى البقعة ! بقايا الكيزان التى انتزعها والورقة التى قسمها نصفين للاسبب معين . كان مفروضا أن يبدأ بفحص الزلط والرمل والتراب وينحنى ويدق ولكنه لم يفعل شيئا من هذا فقد وجدها ، هكذا دون أن يبحث عنها ، لفت نظره بريقها الفضى الوقور ينبعث من فوق حجر أبيض وكأنما وضعت هناك بفعل فاعل أو ظل يحرسها ملاك ، تماما كما هى بالعضة الصغيرة فى حافتها ، بملمسها ، بالرجفة التى تعتريه حين يتحسس خشونتها الناعمة .

ظل زمنا طويلا واقفا فى مكانه لا يفكر ولا يرى ولا يسمع ولا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل ، وكان أول ما تحرك فيه يده ، وتحركت لتزيد قبضته عليها ، وخاف عليها من عنف القبضة فخففها ، ثم سار ووجد نفسه يتوقف بلا سبب ، وما كان يتوقف برهة حتى أحس بفرحة حلوة

طاغية وأدرك أنه وجدها ، حقيقة وجدها . وراح يقذفها بحرص لتعود تختلط بالزلط وينقض عليها،وتستميت قبضته ليعود يفتحها ويقذفها ويفرح حسين يجدها . ولكنه لم يلبث أن عدل عن إضاعتها ، فقد خاف أن تساهيه كأبيه وتذهب ويفتش ولا يجدها . خاف إلى درجة كاد يعتصر نفسه ويبكى ، فهو خلاص لم يعد يريد أن يساهيه شىء ويذهب ويأخذ روحه معه ، إلى درجة أصبح حلمه كله أن يستمر فى هذه اللحظة إلى الأبد ، فهو لم يعد يريد شيئا ، لا أب ولا مدرسة ولا جدة ولا حتى يوم آخر يستيقظ من أجله وينام فى آخره .. لم يعد يريد إلا أن يظل يحس أنها عادت إليه وأنه عاد إليها وأنها ستبقى معه وسيبقى معها دون أن يقطع هذا البقاء حادث أو ضياع .

وأنى له أن يدرك وهو على هذه الحال أن الثالثة كانت قد فاتت من زمن والرابعة حلت ، وقطارها جاء وقام من محطة البندر ، وتعدى السيمافور وأنه فى تلك اللحظة بالذات خلفه يصفر له صفيرا متقطعا مستغيثا يأمره به أن يبتعد .

الستارة ..

كلما رأيت ستارة مسدلة فوق شباك ، أو « بيشة » تغطى وجها ، أو مشربية تحجب شرفة تذكرت بهيج . وكلما تذكرته وجدت نفسى أضحك بصوت عال لا لشىء فى شخصيته أو سلوكه يستحق الضحك ولكن لأنه كان زوجا من النوع المحترم ، النوع الذى تجده لابد خريج جامعة أو صاحب منصب ولديه مجموعة هائلة من « الكرفتات » والذى لابد تجد مشكلته الكبرى أنه يخاف خوف الموت أن يأتى عليه يوم يصبح فيه آخر من يعلم .

وتسأل بهيج عن سبب لهذا الرعب المقيم فلا تجد .. الحقيقة تجد أسبابا أوجه كانت كفيلة بمنع هذا الخوف عنه ، فهو مثلا قد تزوج عن حب وزوجته جميلة وديعة وتحبه إلى أقصى حد ، حد يكلفها أحيانا أن تبكى إذا سافر وتبكى إذا عاد وتبكى إذا استشعرت انصرافه عنها وتبكى إذا أقبل عليها ، وليس معنى هذا أنها مصدر نكد فالبكاء لدى النساء ليس دائما علامة حزن ، هو سلاح لا أكثر .. السلاح الذى لا يخيب . أكثر من هذا سنسن (وهو اسم التدليل لسناء) تملك قدرة عجيبة على إرضائه ، فتعرف متى تضحكه ومتى تضحك عليه ، وبنفس الرشاقة التى تختار بها ألوان فساتينها تختار أيضا أنواع خصامها وأوقاتها ، ولديها نبوغ خاص فى تحديد أوقات الصلح ، وديبلوماسيتها هائلة فى إملاء

شروطه وقدرتها ساحرة فى إحالة جلسة الصلح إلى لجنة تعويضات مهمة الزوج فيها أن يبالغ فى التقدير ، ومهمتها هى أن تناشده الرأفة بميزانيتهم والاقتصاد ، وكفاية خمسة جنيه للشنطة .. هو انا مجنونة أشتريها بستة .. بالاختصار هى زوجة حنون مطيعة مخلصة وإن كان هذا لا يمنعها أن تتحول أحيانا إلى نمرة مفترسة إذا امتدح زائرة مثلا،أو تطلب الطلاق فى الحال إن تأخر ساعة ، فهى أحيان ليس إلا يسود بعدها الصفاء ..

ترى لماذا إذن هذا الخوف المقيم من يوم تخونه فيه ؟ لماذا الخوف من الإعصار والبحر هادئ أزرق وجميل ؟ الحقيقة لا نستطيع أن نحدد سببا واضحا ، فهو يثق فيها أى نعم ، وفى حبها له أى نعم ، ولكن شيئا ما كان لا يجعله على تماما الثقة فى قدرتها على حماية نفسها من ذئاب المجتمع وكلابه . شيء ما كان يفرض عليه أن يقوم هو بهذه الحماية ، نفس الشيء الذى يفرض عليه مثلا أن يحمل عنها حقيبة الملابس أو يجلسها فى مقعد الأتوبيس ليقف هو . شيء ما ربما السبب فيه أنها هى نفسها تطلبه وتنتظره وتعامله على أنه رجلها وحارسها وراعيها ، وتشعره باستمرار أن لولاه ما كان باستطاعتها أن تحيا معززة مصونة الشرف والكرامة .. هو شبه الاتفاق الذى يرى أن المجتمع كله من حوله قد تواضع عليه وأخذه مأخذ الحقائق الثابتة .. اتفاق أن المرأة بمفردها غير قادرة على حماية نفسها بنفسها وأنها ارتضت أن تكون المهمة للرجل ، بل حتى ولو لم ترتض لما اطمأن الرجل على قدرتها على حماية نفسها ولبقى يؤدى دور الحارس اليقظ الأمين .

وبهيج رجل مجرب لم يتزوج إلا بعد أن عرك الحياة برجالها ونسائها

وخرج من تجاربه وقد فقد الثقة فى هؤلاء وأولئك ، ثقته أن هناك فيما قد تحول بين أى رجل وأى امرأة وأن لا وسيلة للحيلولة بينهما إلا بالقوة ، القوة بأشكالها المختلفة . تعلم وقرأ وسافر وجال وآمن بالمساواة وديمقراطية الأجناس والأنواع واستقلال المرأة وحقها فى العمل واختيار المهنة والزواج ، حدث له هذا كله دون أن يؤثر فى قليل أو كثير على القواعد التى درج عليها والتجارب التى ترسبت فيه وأصبحت جزءا من كيانه وجعلته بعد الزواج لا يملك إلا أن يصنع كما يصنع الأزواج وإلا أن يصبح خوفه الأكبر يوما يأتى عليه ويكون فيه آخر من يعلم .. ولهذا ظل فى كل لحظة من حياته الزوجية يعمل لهذا اليوم ألف حساب وهو مؤمن ألا سبيل لمنعه إلا بمجهود خارق يقوم به ليدفع عن زوجته المهالك والمزالق ، ولعلمه أنها قد تأتى على أهون سبب فقد كان يستعمل كل ذكائه وحذاقته وخبرته لشم الخطر ليتلافى أهون الأسباب . إذا أراد دخول السينما اختار مقعدين يجاور أحدهما الممر لتجلس فيه سنسن وليجلس هو بجوارها حائلا بينها وبين الرجال ، وإذا سافر أرهق ميزانيته وظل يطوف القطار حتى يعثر على ديوان خال تماما أو على الأقل ركابه من العجائز أو النساء ، وفى أى ازدحام تجده خلفها مباشرة ويكاد لولا الحياء يطوقها بجسده كله ويدفع الناس عنها وكأنها من زجاج ، وإذا انتقل من مسكن إلى آخر ظل أياما يدرس موقع المسكن الجديد ويتأكد من متانة معلوماته عن الجيران ، أو على الأقل هذا هو ما فعله حين انتقل إلى منزله الجديد بإحدى العمارات الحديثة الكائنة فى أول مصر الجديدة من ناحية روكسى .

ولقد ظلت الحياة تمضى به وبسنسن إلى اليوم الذى عزلت فيه الشقة التى تقابلهم من العمارة المواجهة والتى كانت تقطنها أرملة جافة نحيلة وأولادها الستة .. يومها وطوال الأيام التى ظلت فيها الشقة خالية كانت أمنيته الخفية أن يتبسم الزمن له أخيرا وتقطن الشقة شابة حسناء ، أرملة كانت أو غير أرملة ، أمنيه لم يكن يرى فيها بهيج ما يتنافى أبدا مع الإخلاص الزوجى إذ هو فى الحقيقة مثل الأزواج لا يترك شاردة ولا واردة ولا مارة فى الشارع إلا ويسلط أنظاره عليها تعاينها ، وتهم بها أحيانا ، وإن كانت الظروف مواتية فلا مانع لديه إطلاقا ، إذ لا يعقل ولا يمكن لشىء تافه عابر صغير كهذا أن يؤثر على حبه لزوجته أو تعلقه بها .

ولكن الظروف لم تكن هذه المرة مواتية ، ونوافذ الشقة المقابلة تفتحت يوما ورأى بهيج بعينى رأسه شابا يطل منها ، شابا لا أحد معه ، لا طفل ولا زوجة أو أم .. وكان واضحا من نظراته الجريئة وطريقة تطلعه إلى الناحية المقابلة وإلى المارة فى الشارع أنها طريقة الحر الذى لا يخشى على نفسه مغبة نظرة ولا يحمل فوق كاهله مسئولية ولا يعمل حسابا لإنسان وراءه كل مهمته أن يناقشه الحساب . كانت نظرات وتطلعات فرس برى غير مروض ذكرت بهيج نفسه بأيام ما قبل الزواج ، ذكرته لا ليتحسر وإنما ليحس بهم مفاجىء بدأ يركبه .. الشاب واضح تماما أنه أعزب وها هو ذا قد سكن أمامهم لا يفصلهم عنه سوى الشارع . وبهيج كان أعزب يوما ويعلم أنه والعزاب جميعا لا يتركون حولهم أو أمامهم طوبة من طوب الأرض إلا وأشبعوها فحصا ولمسا لعله يثبت فى النهاية أنها طوبة مؤنثة ، وهو واثق طبعا من نفسه ومن أن سنسن أشرف نساء

الأرض ، ولكن من قال إن أسلم أصحاء الأرض لا يمرض خاصة إذا ظل صباح مساء معرضا للميكروب ؟ لا ضمان هناك لأى شىء فأى شىء ممكن أن يحدث ، فالمسألة ليست جلسة فى أتوبيس أو رفقة سفر .. المسألة إقامة دائمة وسكن .

أغلق بهيج باب البلكونة فى ذلك اليوم وهو يفكر ، وظل يفكر حتى بعد إغلاقها .. وإلى صباح اليوم التالى حين فتحها بنفسه ووجد بلكونة الجار مفتوحة هى الأخرى ووجده يغنى وصوته القبيح يأتيه عبر الشارع عاليا .. أعزب .. متحديا .

* * *

وبدأ الجار الأعزب الجديد يصبح مشكلة ، وبكثرة تفكير بهيج فيها بدأت تتشعب وتتعمق وتضاف إلى مشاكل حياته الرئيسية ، خاصة حين كان يعود وقبل أن يدخل البيت يسرح ببصره إلى أعلى ليجد بلكونة الشاب مفتوحة وبلكونتهم أيضا مفتوحة أو مواربة ، ولا يفصل الاثنتين سوى الشارع العريض .

وبدأ بهيج يفكر فى حل حاسم للمشكلة .. وأضناه التفكير فقد كان فى موقف لا يستطيع معه أن ينتقل من البيت ويعزل ، وليس هو السلطان لكى يجبر القاطن الجديد على التعزيل . وهو يريد أن يحمى زوجته من الخطر الوافد فى سرية تامة وهدوء ودون أن تشعر أنه لا يثق فيها أو يحميها .

ورغم هذا كله فقد كان مصرا على أن يجد الحل .

وقد وجده .

وعلى العشاء المقتبس بحذافيره من ركن المرأة ، والذى كانت تفوح منه رائحة الاقتباس وطعمه الماسخ ، بدأ بهيج يسوق المقدمات ويتحدث عن الحريات المنزلية الأربع . قال إنه بدأ يدرك أنهم محرومون فى بيتهم من حرية الحركة والعرى والحفاء وارتكاب الحماقات ، وكيف أن المنزل لا يعد متعة أو بيتا بمعنى الكلمة إلا إذا توفرت له هذه الأركان وإلا لكان السجن أرحم . وهو قد أدرك أيضا بعد طول بحث أن سبب إهدار حرياتهم تلك يرجع إلى عامل واحد لا غير ، هو البلكونة التى تفتح على الصالة وتتوسط البيت وتجرحه وتجعله نهبا لأنظار الجيران القاطنين عبر الشارع . وأن الطريقة الوحيدة لكى يصبح بيتهم بيتا هى أن يقيموا فوق سور البلكونة ستارا عاليا ، أعلى من قامته ، يحجب كل ما يدور داخل البيت عن الأنظار ، وحين تبلورت المقدمة الطويلة فى هذا الاقتراح بدأت الزوجة تسخفه وتعيب عليه أنه يريد أن يخنقها ويمنع عنها الشمس والهواء ، وكل هذا لأنه لا يثق فيها ولا يثق فى نفسه ، إلى آخر المحاضرة التى تعودت أن تلقيها عليه وتسخف بها أى اقتراح من اقتراحاته ربما لمجرد كونها اقتراحاته .

ولكنه لم ييأس .. استجمع كل ذكائه وقدرته على الإقناع ليدحض مزاعمها وليثبت لها أن ليس فى الأمر شك فيها أو فى الجيران ، وأنه لا يريد سوى حقه فى الاستمتاع ببيته وحجب الأنظار المستطلعة عنه . وأيضا لم تبدأ الزوجة توافق إلا بعد أن تعهد بشراء طقم كراسى إيديال للبلكونة ، ومضى يغذى أحلامها عن الجلسات المرتقبة وليالى القمر وأشجار الياسمين التى لا بد سيزرعونها .

ولم يأت الغد إلا ليجد بهيج قد اتفق مع المنجد والنجار ، ولم يمض يوم آخر إلا وكانت الستارة معلقة عريضة تغطى البلكونة من جهاتها الثلاث ، وترتفع فوق قامة الرجل .

واعتقد بهيج يومها أن دوره فى حل المشكلة والمحافظة على بيته وزوجته قد أداه على خير ما يرام ، ويحق له بعد هذا أن ينام ملء جفونه ويمدد رجليه ويشخر .

* * *

والحقيقة أيضا أن دوره هو انتهى أو كاد ، ليبدأ دور الستارة ، فقد أصبح همه الشاغل كلما عاد إلى البيت أو خرج منه أن ينظر إليها ويرى إن كانت مقفله أو مفتوحة ، وحين نبه على سنسن مرة ومرتين أن تراعى إقفالها باستمرار ولم تفعل عنادا منها لا أكثر ، قرر أن يكون حمشا ويفرض رأيه . وهكذا فوجئت به سنسن فى اليوم التالى وهو فى طريقه إلى المكتب ، فوجئت به يصرخ فيها بلهجة غريبة باترة حاسمة أن لا تفتح الستارة أبدا لأى سبب كان ، وأن عليها أن تقبل أمره هذا بلا نقاش .. وغير مهم المناقشة الشكلية التى تلت كلامه والتى لم يتزحزح فيها عن رأيه فى أن من حقه كزوج أن يصدر أية أوامر يراها دون أن يكون مطالبا بتفسيرها ، والتى لم تتزحزح فيها هى عن رأيها فى أن لها الحق كل الحق أن تمتنع عن تنفيذ أى أمر صادر منه أو من غيره ولا تكون مقتنعة به ، المهم أن تمسك كل منهما برأيه جعل الموقف يتوتر وجعل بهيج يفقد السيطرة على هدوئه وأعصابه ، وجعله فى نوبة غضب ينفجر لها بأن السبب الحقيقى لعمله الستارة هو الشاب الأعزب الذى احتل الشقة المقابلة

ونظراته التى ضبطه وهو يوجهها بصفاقة وقلة أدب إلى بلكونتهم ، ورغبته فى أن يحفظ لبيته حرمته ويحميها من وقاحة جار مثله ، وساعتها اتضح أن الزوجة هى آخر من تعلم بأخبار الجيران العزاب ، فقد بدا واضحا أن سنسن لا تعلم شيئا عن تعزيل الأرملة العجوز ، ولا عرفت أبدا بمجىء الأعزب ، ولا طرق لها الموضوع بالا .

ــ طيب .. ادى انتى دلوقت عرفتى .

ــ لا .. إذا كان كده يبقى خلاص .. أمرك يمشى .

ومشى أمره وأصبحت الستارة كحائط لا يتزحزح ، كل ما فى الأمر أن البلكونة قد تغير مركزها فى البيت ، وبدلا من المكان غير المطروق الذى كانته والذى لم تكن سنسن تجسر على الظهور فيها إلا وهى بملابس الخروج أو بأكثر ملابس البيت حشمة ، ولا تظهر فيها إلا وهى مضطرة ، وإذا وقفت فيها نظرت إلى الشقق المقابلة والمجاورة بأدب وحساب حتى ينظر إليها أصحابها بأدب وحساب ، بدلا من هذا أصبحت البلكونة تحت حماية الستارة مكان سنسن المختار للجلوس تقضى فيه أى وقت تشاء بأية ملابس ترتديها وتقوم بأى عمل تراه . بل شيئا فشيئا بدأت سنسن تفطن إلى مزايا للستارة كانت خافية عليها أهمها بلا جدال ما يدور فى شققهم ومطابخهم وحجرات جلوسهم ونومهم دون أن يكون باستطاعتهم هم أن يروها ، فالستارة تحجبها عنهم وتتيح لها أن ترى ولا ترى ، وهكذا بدأت نظراتها تفقد طابع النظر خلال بلكونة مفتوحة وتتخذ طابع النظر من خلال الشقوق . وبعد أن كانت البلكونة تجعلها تعامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوها به وتجعل لعينيها دور

المراقبة لغيرها ولنفسها ، أصبحت مهمة عينيها أن تراقب الغير فقط وتتجسس عليه وتكشف أسراره وخباياه وهى ضامنة أن أسرارها فى حصن حصين . ونفس التحول بعد بضعة أيام انتقل لتفكيرها فأصبح اهتمامها بما لديها ، وأصبح الوقت الذى تقضيه تتفرج على ما يحدث داخل الشقق الأخرى أكثر بكثير من الوقت الذى تقضيه ترى فيه شئون شقتها .

وكذلك كان لا بد أن يواتيها الخاطر ولو مرة ويجعلها تفكر فى رؤية هذا الجار الجديد الذى كلمها زوجها عنه ، وترى كيف تطل الوقاحة من نظراته كما قال الزوج .

* * *

والمدهش أن الجار الأعزب لم يكن وقحا أو قليل الأدب ، كان فى الحقيقة مشغولا جدا فقد كان يعمل فى الصباح فى شركة ويدرس بعد الظهر فى كلية ويقضى ساعتين كل ليلة يصحح الملازم فى مطبعة . شاب من قراء سير العصاميين المؤمن بأن فى استطاعته أن يصبح مثل روكفلر وعبود ، الغارق فى أحلامه هذه بطريقة لم يخطر على باله مرة أن يقف فى بلكونته ويتطلع إلى بنات الجيران فضلا أن يحاول معاكسة أحد . وقد كان من الممكن أن يظل غارقا فى مشغولياته وأحلامه تلك لو لم ير هذا الستار الذى صنعه السيد بهيج ، فقد لفت نظره أن تنفرد تلك البلكونة المقابلة وحدها دون غيرها من بلكونات البيت وغيره من البيوت بهذه الستارة التى كان واضحا أنها أقيمت حديثا وأنها مسدلة باستمرار ولا تفتح أبدا . وهكذا منذ اليوم الأول الذى لاحظ وجودها فوق سور

البلكونة ، وهذه البلكونة بالذات بدأت تلقى منه عناية خاصة ربما لغرابة الظاهرة ، وربما لأن منظرها هيج كوامن خياله وجعله يمضى يحلم ويتصور نساء ألف ليلة وليلة أو فتياتها اللائى لا بد أقيمت ستارة كثيفة كهذه لتحميهن من العيون .

وربما لو كان قد رأى السيدة سنسن بكاملها وهى فى الشارع أو فى بلكونة مكشوفة لما استرعت انتباهه أو توقفت عندها نظراته ، ولكان قد عاملها مثل العشرات غيرها من السيدات والفتيات اللاتى يراهن فى نوافذهن وشرفاتهم ويتركهن جميعا ليوجه انتباهه كله إلى الستارة المسدلة وإلى الحورية الرائعة الجمال التى لا بد تكمن خلفها ، والتى لا بد أن يأتى يوم تظهر فيه أو على الأقل يبدو منها وجه أو ذراع .

بل لم لا نقول إن الستارة وما تحجبه كانت وراء تركه لعمله فى المطبعة ورفعه حرارة النقاش الذى دار بينه وبين صاحبها إلى درجة أخرى والاستغناء عن خدماته ؟ وعدم ضيقه ألبتة بما حدث بل فرحته به ، إذ سيتاح له منذ اليوم أن يقضى ساعتين أخريين يتطلع فيهما إلى البلكونة ذات الستارة المسدلة ، ويخمن ويحس بالحرمان ويهيج الإحساس أحلامه .

وبالتأكيد إذن كان لا بد أن يأتى اليوم الذى يدرك فيه وقلبه تتعانف دقاته ، أن قماش الستارة يختلج اختلاجة أنثوية بلا شك وأنه ويا للهول بعد قليل انفرج فرجة صغيرة رفيعة ولكنها كانت كافية لأن يتأكد أنها فعلا أنثى،وأن عينها ووجنتها التى اطلعت وتلصصت أجمل وأروع عين ووجنة رآهما فى حياته .

(آخر الدنيا)

وحقيقة كان ذلك اليوم بالذات هو اليوم الذى قررت فيه سنسن أن تتفرج على الجار الأعزب الوقح ، ويبدو أن محاولتها البحث عن وقاحته قد امتصتها إلى درجة لم تفطن معها أنه لمحها من خلال قماش الستارة ورآها .

والواقع أنها لم تفاجأ كثيرا فقد وجدته كما وصفه زوجها تماما .. وبالفعل كانت نظراته تحفل بالوقاحة وقلة الأدب ، وبالفعل لم يحول أبصاره عن البلكونة طيلة الوقت الذى ظلت تراقبه فيه . أدركت حينئذ أن زوجها كان على حق فى إقامته للستارة ، فلولاها ما استطاعت أن تحمى نفسها من وقاحته ونظراته ..

وانسحبت يومها من البلكونة وقد عاهدت نفسها أن تتجاهل وجود العازب وشقته وبلكونته .

ولكن الشاب لم ينسحب .. وقف مسمرا فى بلكونته إلى ساعة متأخرة من الليل علها تظهر . وخيل إليه فى الصباح أنه أخيرا أحب ، ومن يدرى قد تكون هى الأخرى أحبته . وهكذا قضى الجزء الأكبر من اليوم التالى لا عمل له إلا التحديق فى الستارة علها تختلج مرة أخرى وتنفرج كلما كان الهواء يداعب قماشها ويحركه كان الدم يسخن فى عروقه ويعتقد أنها هى ، ويركز بصره كله عله يستطيع أن يتبينها .

وفى نفس ذلك اليوم التالى لم يكن وحده الذى يحدق فى الستارة المختلجة ، كان بهيج الزوج عائدا من عمله يلقى ببصره كما تعود ناحية الستارة ليطمئن عليها أولا ، ثم يعود ليختلس نظرة خاطفة إلى بلكونة الجار ليطمئن على خلوها منه .

وفى ذلك اليوم حين وجد بهيج القماش يتحرك لم يعلق على حركته أهمية ، ولكنه حين وجد الأعزب واقفا فى البلكونة قد صوب نظراته المحمومة إلى الستارة المختلجة عاد ينظر بسرعة إلى حيث كان ينظر وبدوى أعنف دق قلبه وأيقن بلا أدنى جدال أن الستارة لا تختلج عبثا وأن وراءها عينين تنظران وجسدا .. وراءها سنسن .

وفى لمح البصر كان قد أصبح فى الشقة و لم يخل عليه أنه وجدها فى المطبخ فلا بد أنها لمحته وفرت ، وفى لمح البصر كان قد أطبق عليها طالبا منها أن تعترف . وحين حاولت الكلام أجابها بصفعة قوية من يده الأخرى أعقبها بأخرى مدوية من اليسرى . وإمعانا جرها إلى البلكونة وأزاح الستارة بغل ليريها الشريك الآخر واقفا لا يزال يحدق .. الشريك الذى ما أن أزيحت الستارة ورأى المشهد حتى اختفى فى التو وذاب برعونة ، وبكل جبن المذنب المتلبس .

وكانت الصفعتان إشارة البدء لعاصفة من تلك العواصف التى كثيرا ما تجتاح حياة الأزواج والزوجات تقتلع الضعيف منها وتهدد القوى ، فقد تبعها كلام صارخ محموم عن شرفه وطعنات حادة قاتلة إلى شرفها ، ونعوت بشعة ويمين طلاق ألقى . والزوجة تحاول الدفاع والاستشهاد بالخادمة ، ويصرخ قائلا إنه رأى الستارة بعينه تهتز ، فتستنجد قائلة ربما الهواء فيعود يهم بصفعها أو ركلها وهو يقرنها بالهوى وبنات الهوى .

عاصفة قذفت بالزوجة تلك الليلة إلى بيت أبيها وقذفت بـه إلى الخمارة .. وهطلت آخر الليل دموع . وفى اليوم التالى تدخل الأهل والأصدقاء وبدأ الزوج يراجع نفسه قليلا ، وبعد أن كان رافضا ألبتة أن

يصغى أو يناقش بدأ يخفض رأسه ويستمع ويلمح حرقة الصدق فى كلام
كان الزوج فى حاجة إليه ، فحتى بعد أن رأى بعينيه كان أهون عنده أن
يشك فى عينيه ولا يشك فيها ، فحياتهما معا وعشرتهما واندماجهما
بطريقة كادا معها أن يصبحا جسدا واحدا ، بطريقة يعرف كل منهما عن
الآخر أكثر مما يعرف الآخر عن نفسه ، ويثق بالآخر أكثر مما يثق
بنفسه .. هذا كله فوق التجربة التى قام بها وسطاء الخير وأعادوا تمثيل
ما حدث أمام الزوج ونفخوا فى الستارة لتختلج ، وراقبها الزوج من
أسفل ليعرف إن كانت اختلاجاتها تشبه اختلاجة الأمس ، وليثوب إلى
نفسه حينئذ ويطلب الصفح وتنتهى العاصفة نهاية لا يتوقعها أحد فوق
فراشهما وهو يحتضنها ويقبل عينيها الدامعتين ، وتصل حرارة الحب
بينهما حد أن ينسيا تماما ما حدث وسبب الحكاية ، ويستمتعا باللحظة
والسهرة وكأنها أول لقاء ، وفى أحيان تصل العواطف بينهما حد معاودة
الاعتذار . بل تأكيدا لندمه وتوبته وإمعانا فى ثقته بها يعلن لها أنه خلاص
قرر أن تفتح الستارة باستمرار ، وحين تأبى هى يقسم هو ويلحف فى
القسم ويؤكد لها أنها بعد تلك اللحظة حرة فى أن تدخل وتخرج وتغلق
البلكونة أو تفتحها وتقف فيها أو تتطلع منها على أية هيئة وبأية ملابس
ولأى وقت تشاء .

وبينما كان الدفء يشع من فراشهما كان الجار الأعزب فى فراشه
يرتجف من البرد ومن بعض ما تيسر من تأنيب الضمير ومن خوف كثير
على نفسه وحياته ، وكان يتوج هذا كله بقرار صارم أن لا يقف بعد هذا
فى بلكونته أبدا ، ولا يتطلع إلى جارة أو غير جارة ، وأن ينهمك مرة

أخرى فى مشاغله .

* * *

وجاء الصباح التالى لتعود الحياة سيرتها وقد تغير شكلها قليلا فالستارة فى بلكونة بهيج فتحت على آخرها وبلكونة الأعزب مغلقة وكأنما دقت فيها مسامير . ومع هذا فلم تظهر سنسن فى البلكونة ولا حتى وجدت لديها حماسا لأن تفعل شيئا آخر بالمرة . كان ما حدث لا يزال سارى المفعول فى نفسها تأبى أن تصدق أنه حدث ، وإذا صدقته غامت عيناها بالدموع .

وحتى بعد أن مضت أيام وزالت كل آثار العاصفة ظلت سنسن غير شديدة الحماس لكل هذه الحريات التى أصبحت تملكها .. تقف فى البلكونة فلا تحتمل الوقوف ، تجوب الشارع وواجهات العمارات المقابلة بعيون قد انطفأ فيها البريق ، أى متعة للبلكونة الواضحة المكشوفة بعد متعة اختلاس النظر من الشقوق ؟ وبأى نفس تقبل المتعة وهى قد عاشت التهمة وذلها ونالت العقاب ؟ الحقيقة كل ما كان يشغل بالها إذا وقفت فى البلكونة أن تواتيها الفرصة لتدافع هى عن نفسها وشرفها أمام الأعزب الشاب ، الشرف الذى أهدره زوجها وهو يدافع عنه . كانت تريد أن تلقى عليه درسا وتريه أنها ليست كما ظن هو أو ظن زوجها . ولكن الفرصة لم تكن تواتيها ففى كل مرة تجد بلكونته مغلقة وتجده غير موجود .

ولكن مهما طال الزمن فلا بد أن سيأتى اليوم الذى يوجد فيه . غير أنه حين جاء وخرجت هى إلى البلكونة ووجدته واقفا أمامها عبر الشارع

دق قلبها بالانفعال . وللمرة المائة استعادت ما كانت قد انتوته ، فهى ستظل ساكتة إلى أن يبدأ يتطلع إليها حينئذ سوف تواجهه بقسوة وتبصق فى وجهه أو تقذفه بما فى يدها ثم تدخل وتصفق وراءها الباب ، ولكنها ظلت واقفة أكثر من ساعة دون أن يتطلع إليها أو يبدو أن فى نيته أن يتطلع إليها . وكان من المستحيل عليها أن تقبل الهزيمة حتى لو أدى بها الأمر لمحاولة جذب انتباهه ورفع صوتها تطلب من الخادمة أن تحضر لها شيئا ، وحتى حين ضغطت على نفسها وفعلت لم يبد عليه أى أهتمام ، أكثر من هذا بعد قليل وجدته ينسحب إلى الداخل ويمد يده ويغلق الشيش .

وكان عسيرا عليها أن تصادفه واقفا فى البلكونة خلال الأيام التى تلت ، ولكنها فى كل مرة عثرت عليه كانت تحاول أن تفعل كل شىء وأى شىء فقط لترفع بصره الذى ألصقه بأرض الشارع وأبى أن يرفعه . ولم تفعل محاولاتها المتعددة أكثر من أنها أنستها الهدف منها والدرس الذى كان فى نيتها أن تلقيه عليه والحقد الذى تكنه له فى قلبها ، وأصبح همها كله ومنتهى أملها أن تنجح فقط فى رفع بصره من فوق أرض الشارع ، وكأنها إذا نجحت ونظر إليها يكون قد تم لها الانتقام واستعادت مكانتها وشرفها المثلوم ..

ولو كان أحد قد أخبرها أنها ستضطرب كل هذا الاضطراب وستلهث ويجف لعابها ويتوقف قلبها عن النبض ، لو كان أحد قد أخبرها أن هذا كله سيحدث لها حين تفاجأ ذات مرة وقبل أن تحاول شيئا أنه قد رفع بصره إليها وثبت عينيه فى عينيها لما صدقته بل ولما صدقت أبدا أنها لم تستطع أن تحتمل نظراته لثوان ، وأنها هى التى انسحبت من البلكونة

هذه المرة ترتجف وهى لا تملك قدرة على صفق باب أو فتح فم . كل ما حدث أنها استطاعت قبل أن تختفى أن ترسم بالكاد شيئا فوق ملامحها يعبر عن الغضب .

وربما لو لم ترسم هذا الشىء .. ربما لو ظلت واقفة وكأنها لم تلحظه أو نالها اضطراب ، ربما لو لم ترد أن تؤنبه وتعلمه الخلق الحسن ، ربما لو حدث شىء من هذا لما قضى الشاب ذلك الوقت الطويل يفكر فيها ، ولما شجعه ما حدث منها على المضى فى التفكير وتدبير الخطط لما بعد التفكير .

أما هى فقد ظلت وقتا طويلا أيضا تفكر وتستنكر اضطرابها وتستعذبه ، وتنتوى العودة إلى البلكونة وتعدل عن نيتها ، والإحساس العام الذى يتملكها أنها غير غاضبة على الشاب وأنها أصبحت ليس لديها مانع حتى أن يعود يوجه إليها نظراته .

وفوجئ بهيج حين عاد ذات يوم فوجد الستارة تنسدل وتحجب الشرفة وما فيها ، واستغرب .. وسأل الزوجة فإذا بها تقول إن الستارة لازمة لحمايتها من نظرات الجيران المتطفلين ، وأن لكل بيت حرمته والستارة تحفظ الحرمة ، وحاول أن يناقشها بنفس حججها القديمة عن الشمس والهواء ولكنها أفحمته حين قالت إنها كانت مخطئة فى اعتقادها وأنها أخيرا اقتنعت برأيه .

* * *

واستمرت الستارة بعد هذا تؤدى عملها مع اختلاف بسيط ، إذ كانت تستخدم لتحول بين بهيج وبين رؤية الشاب الأعزب إذا كان موجودا فى البيت، ولتحول بينه وبين رؤية الواقفة تحتمى بها لتستطيع أن ترى الشاب ويراها دون أن يلحظهما أحد وبالذات بهيج . وفى أحيان كان يتطلع بهيج من الشارع ليطمئن على أن الستارة معلقة ومسدلة ، ودائما كان يجدها كذلك ، وإذا تصادف ووجدها تختلج كان حينئذ يهز رأسه ويبتسم ويقول : الهوا .. لا بدا أنه الهواء .. لعنة الله عليه ..

الغريب ...

من كان يظن أن « الشوربجى » ذا الشعر الأصفر المجعد والوجه الخواجاتى الأحمر والملامح الجذابة الحادة له مثل هذه القصة المذهلة مع قتال القتلة وقاطع الطريق وسلطان الليل ؟ أنا نفسى قبل أن يحكى لى كان من المستحيل أن أصدق أن الشوربجى زميل ثانوى العتيد الذى علمنى ركوب العجل وكتابة القصص وجعلنى أدمن قراءة روايات الجيب .. لم أكن أعتقد لحظة أن فى حياته جانبا بأكمله لا أعرفه ، وكان مقدرا ألا أعرفه لولا تلك المصادفة التى جمعتنى به .. والمصادفة وحدها هى التى كانت تجمعنى به . فعلى الرغم من أننا نعمل فى نفس المدينة ، فى القاهرة ، إلا أننى لم أكن ألقاه إلا صدفة ، وفى كل مرة نأخذ العناوين ونضرب المواعيد ونحن نعرف سلفا أننا لن نستعملها وأننا لن نلتقى إلا كما تعودنا اللقاء صدفة .. وأنا أعرف عن الشوربجى أشياء كثيرة ، أعرف بلدهم ، ورأيت أباه مرة ، وأعرف ولعه بالنساء وضيقه الشديد بأننا على الرغم من أننا كبرنا وغادرنا ثانوي إلا أننا لا نزال نسميه باسم جده كما تعودنا أن نسميه . فاسمه فى الحقيقة كان ولا يزال طبعا عبد الرحمن صالح الشوربجى ، ولكنا فى ثانوى نضيق بالأسماء الأولى المتشابهة ، وهكذا عرفناه بالشوربجى ، وعلى الرغم من ضيقه بالتسمية ظللنا نعرفه هكذا إلى اليوم ، إلى حد أننى كنت أستغرب حين تناديه زوجته أمامى

بعبد الرحمن . أعرف عنه أشياء كثيرة ولكنى لم أكن أعتقد أبدا أن فى حياته أناسا كالغريب أبو محمد وعم خليل وحياة الليل وسفك الدماء ، وهو الرائع الأدب الذى تخدش خجله الكلمة الخارجة حتى بعدما صار رجلا كبيرا وخلف أبناء ، ولكنها الصدفة كما قلت ، وربما الليلة أو الموضوع الذى طرقناه موضوع السفاح ، والشوربجى ليس محدثا لبقا ولا راوية ممتازا ، وعلى الرغم من أنه علمنى كتابة القصص ولكنه يتحدث أجمل بكثير مما يكتب ..

لا أعرف ماذا دعا الشوربجى ليكشف لى عن هذا الجزء من نفسه فى تلك الليلة .. فربما الموضوع كما قلت ، وربما الجلسة ، وربما الساعة الواحدة والنصف التى بدأنا الحديث فيها ، وربما قصته نفسها ، أو لعل السبب هو تلك اللذة الواضحة التى كنت أراه مستمتعا بها وهو يغوص فى نفسه ويحفر ويستخرج أشياء ، وكأنما يكشف وجودها لأول مرة ، ربما هذا هو ما جعله ينساق ويقضى الليلة كلها يتحدث وأقضيها وأنا أنصت .. وأرتجف أحيانا ، ولكنى أستمر أنصت بشغف وبلا انقطاع ..

ـ ١ ـ

تصور أننى جاءت علىّ فترات فى حياتى كان حلمى الوحيد فيها أن أقتل إنسانا أى أنسان ، أقتله هكذا بلا سبب وبلا رغبة إلا رغبة القتل فى حد ذاتها .. ولا تنهك نفسك وتحاول أن تبحث فى طيبك أو فى

كل علوم النفس الحديثة عن تفسير لهذه الرغبة فأنا لم أكن مريضا أو شاذا أو أعانى من مأساة عائلية ، كنت تلميذا عاديا جدا بالكاد تعديت الرابعة عشرة من عمرى ، وكنت أعتبر رغبتى هذه رغبة طبيعية جدا لا شذوذ فيها ولا انحراف وأنها لا تعن لى فقط ولكنها لا بد موجودة عند كل الناس ، ولا بد قد استبدت بهم يوما خاصة وهم يضعون أقدامهم على عتبة الرجولة — أن يقوموا بعمل خارق يحسون بعد القيام به أنهم قد أصبحوا رجالا .. بعضهم يترك البيت مثلا ويحاول البحث عن عمل يتقاضى عليه أجرا مثلما يفعل الرجال الكبار ومثلما يفعل أبوه ، وبعضهم يبدأ يسهر فى الخارج ويعود متأخرا ويصطدم بأهله ويقول لهم بأعلى صوته : « أنا حر أسهر على كيفى .. أنا راجل »، وبعضهم يبدأ يحمل بندقية أبيه على كتفه وإطلاق النار فإذا اعترض أبوه على تصرفه هدد بقتل نفسه أو يقتل من يعترض طريقه « يقصد أباه »، وبعضهم يحلم بامتلاك مسدس .. وكلها رغبات طبيعية الهدف منها أن يثبت كل لنفسه أنه قد أصبح رجلا ، ويثبت لها بطريقة الرجل الخشنة .

كل الخلاف بينى وبين من كانوا فى سنى أنى غاليت قليلا فى رغبتى وأردت أن أدخل عالم الرجال بأن أقتل أحدهم ، وهى على العموم كانت رغبة دفينة لا أجرؤ على إظهارها حتى لنفسى ، ولكنى أحس بوجودها وأسعى إلى تحقيقها وكأنما من وراء نفسى ، ومن ورائها لأنى كنت أخاف ألا أكتفى بقتل رجل واحد وأن انساق فى هذا الطريق .. ولكنى كنت اطمئن نفسى وأقول إن هذا لن يحدث .

وأدلل لنفسى على هذا بأن أستعرض ما كنت أفعله مع القطط وأنا

صغير ، إذ كنت وأنا طفل أخافها جدا ، أخاف شواربها الطويلة وتكشيرتها ومخالبها البشعة ، وكنت أرنو إلى اليوم الذى أكبر فيه وأستطيع إخافتها وأنتقم لكل ما سببته لى من رعب .. وارتبط الكبر فى نفسى بقدرتى على إخافة القطط والكف عن الخوف منها ولهذا لم أكف عن مطاردتها أبدا ، وهدفى أن أنجح ذات يوم فى حصارها وإرعابها وإمتاع نفسى بمشهدها وهى خائفة منى .. وكم طاردت من قطط ، وكم نجحت فى إغلاق الأبواب والنوافذ لمنعها من الهرب ، ولكنى دائما كنت أفشل فى حصارها وتهرب . مرة واحدة فقط نجحت فى حبس قطة فى إحدى حجرات بيتنا . كانت قطة الجيران وكنا نكرههم وكنت قد اعتزمت فى ذلك اليوم لا تخويفها فقط والاكتفاء بسعادتى لرؤيتها خائفة ، ولكن على تمويتها أيضا .

ظللت أجرى وراءها حتى دخلت حجرة المخزن وكل نوافذها وفتحاتها محكمة الإغلاق ، فدخلت وراءها مسلحا بعمود حديد من عمدان نافذة قديمة ، وأغلقت الباب واستمتعت أيما استمتاع بالورطة الكبرى التى حلت بالقطة ، تقفز من الأرض إلى السقف ومن السقف إلى الأرض وتبحث فى هلع عن مخرج وتصرخ صرخات مرعوبة متصلة وكل ما فيها قد وقف يرتجف ويرتعش ، والباب من ورائى محكم الإغلاق وأنا أتقدم ناحيتها بخطى بطيئة والعمود الحديدى مرفوع فوق كتفى ومستعد لأخبطها به الخبطة الواحدة القاتلة ..

مضيت أتقدم ببطء وأنا أنعم بحالة الرعب المميت التى تملكتها ، وأستعيد كل ما قاسيته فى صغرى من رعب وأسعد بنفسى وبكبرى وبهذا

الانتقام الضخم الذى أتيح لى أن أقوم به .. وفجأة توقفت فى مكانى ، فالقطة كانت قد أدركت بعد مجهود هائل مريع أن لا مخرج لها من الحجرة وأنها هالكة لا محالة .. ولا أعرف إن كنت فعلا قد أدركت هذا ولكنى لا أزال أذكر صرختها الأخيرة والركن المظلم الذى كنت قد اجبرتها على الانزواء فيه ، ثم كيف كفت عن صراخها العالى المذعور واستدارت لى تواجهنى لأول مرة منذ أن بدأت مطاردتى لها ، تواجهنى بل وبدأت تمزق الأرض بمخالبها وتتقدم نحوى ... و ... أعوذ بالله ، نظرتها .. عيناها بالذات .. لن أنسى ما حييت الرعب .. أقصى درجات الرعب ، حدقتاها مفتوحتان على الآخر وأنيابها مكشوفة كلها حتى آخر الفك ، وهى تتقدم وقد بلغ رعبها درجة كنت متأكدا معها أنها ستقفز حالا وتنشب أنيابها وأظافرها وشواربها والرعب المطل من عينيها .. ستنشب هذا كله فى وجهى وتمزق لحمى وتفقأ عينى وتلتهم زورى .

ونظرة واحدة فقط هى التى ألقيتها عليها ، وهى التى سمرتنى فى مكانى أنظر إلى رعبها اليائس المجنون وتتفكك أو صالى .. ولا أدرى كيف أنقذت نفسى فى آخر لحظة وفررت من الحجرة وأنا أجرى خائفا مرتعشا لا ألوى على شىء ، أبحث عن أمى لأحتضنها وأرتعش وأخفى وجهى وعينى فى صدرها وأتمنى لو استطعت أن أختفى بكلى داخلها !!

* * *

ربما مغالاتى فى إثبات رجولتى بقتل رجل سببها هذه المغالاة التى دفعتنى لأن أثبت أنى تركت الطفولة وكبرت ، بتحولى من خائف من القطط إلى مخوف لها . تلك العادة التى تركتها تماما بعدما حدث لى مع

القطة المرعوبة فى المخزن ، ولو كنت أعلم أن رغبتى هذه الثانية لإثبات رجولتى ستقودنى لموقف أكثر رعبا وأشد بشاعة لترددت قليلا وأنا أركب رأسى وأصمم وأبيت النية فى صدرى وأتكتمها وأسعى حثيثا حثيثا لتحقيقها !!

أما لماذا عن طريق القتل بالذات فقد تقول إنها استمرار لنزعتى وأنا صغير ، ولكن الواقع غير هذا فالقتل فى حد ذاته لم يكن هو ما يجذبنى .. القتلة هم الذين كانوا يجذبوننى .. هؤلاء الناس الذين يسمـونهم فى مديريتنا أولاد الليل ، هؤلاء الذين يحكمون مملكة الليل ويقتلون من يعترض سبيلهم فيه..فى تلك السن كنت شديد الإعجاب بأولاد الليل هؤلاء إلى درجة أنى فى أحلامى لكى أصبح رجلا كنت لا أريد إلا أن أصبح واحدا من الذين يقشعر لذكرهم العاديون القانعون بلقمهم وحياتهم .. كانت الرجولة فى رأيى مرتبطة بأعمال غير عادية وبرجال غير عاديين ، كانت الرجولة فى رأيى هى رجولة أولاد الليل .. كنت أريد إذا أصبحت رجلا أن أصبح واحدا من الذين يقشعر لذكرهم الرجال فى بلدنا ؟!..

بالاختصار كنت أريد أن أصبح بطلا باعتبار أن الرجولة لا بد أن تكون بطولة ، ومثلى الأعلى كان أولاد الليل .. ولهذا كنت دائم التتبع لتحركاتهم وأفقه ما يحدث لهم تماما كما يتتبع شبان هذه الأيام أبطال السينما ويتحرقون شوقا إلى أخبارهم .. وكان حلمى الدائم أن أتعرف بهم أو بأى منهم وأن يصاحبنى ويعلمنى حرفة أولاد الليل ويجعلنى أقتل ، وأصبح فى النهاية رجلا ..

كنت فى الرابعة عشرة كما قلت ، نحيفا شاحب الوجه هادئ الملامح

عمرى ما تشاجرت أو اشتبكت أو شتمت أحدا ، حتى كان أبى وأمى وكل الناس يقولون عنى إنى طيب وابن حلال .. ولم يكونوا يعرفون أبدا أن فى صدرى بركانا يريد الانفجار ، وأن فى رأسى أحلاما وعالما غامضا غريبا مختلفا تماما عن العالم الباهت الراكد الذى كنت أحيا فيه ، عالم آخر فيه شجاعة وجدعنة ومخاطرة وصدام .. عالم لا بد أنه لا يوجد إلا فى الليل ولا يسمح بدخوله والحياة فيه إلا لرجل بطل .. لابن ليل !!

— ٢ —

ولم أترك طريقا أسلكه ليوصلنى لأولاد الليل إلا طرقته .. كنت أضيق بصحبة لداتى من تلامذة البلدة وطلبتها وأجوب الغرز والقهاوى بحثا عن أخبار سرقة أو جريمة ، أو أملا فى العثور على رجل شاف أو رأى وجلس يحكى .. وكان منقذى الدائم هو عم خليل .. كان عم خليل يعمل خفير طماطم فى عزبة قريبة مجاورة وكان عجوزا تخطى الخمسين ، ولكنه قضى شبابه كله وجزءا من رجولته لصا كبيرا وابن ليل ، وربما من أجل هذا السبب اختاره صاحب العزبة وعينه خفيرا على المائة فدان ..

كنت آخذ له باكو المعسل والسكر والشاى ، والشاى بالذات فقد كان كييف شاى ، يضع الأوقية كلها فى التلقيمة الواحدة ويعمل الشاى من ثلاثة أدوار ، الأول سادة ، والثانى بخدشة سكر ، ولا يسمح لى بأن أشرب إلا من الدور الثالث الحلو .. وكنت أجد فى صحبة عم خليل متعة

كبرى .. فقد كان إذا تسلطن من الشاى والدخان بدأ يحكى عن مغامراته وعن كبار اللصوص الذين عرفهم وعن البهائم التى سرقوها والجدران التى نقبوها والمنازل التى دخلوها ، وكنت أحب منه عدم مبالغته فى ذكر بطولاته الشخصية وتمجيد أدواره ، كان دائما يلعب لأى عصابة يعمل معها دور المراقب أو المشاهد الذى يحمى ظهر المهاجمين ويحذرهم .. وكان خليل هو الآخر يجد فى صحبتى متعة ، فهو وحيد عجوز تعدى الخمسين يقبع طول الليل والنهار فى ذلك العش الذى صنعه لنفسه على رأس المائة فدان المزروعة طماطم ، وكان أعور يغطى نصف وجهه بمنديل محلاوى متسخ بطريقة لا يبدو معها أنه يخفى عوره ، وكان يحب الكلام ويحب أن يحكى عما فعله فى الزمن الخالى .. وكان يجد فىّ خير مستمع ، وكان يقضى الساعات يحكى ولا يمل ، ساعات يلتهب فيها خيالى البكر وأجد نفسى بقوى أكبر منى مدفوعا لا لكى أسمع فقط ولكن لكى أعمل وأنضم إلى عصابة مثلا وأشاهدهم وهم يشتبكون .. وكنت حينئذ أسأله إن كان يعرف أحدا من أولاد الليل المعاصرين الذين كنا نسمع نتفا متفرقة عن حوادثهم ، كان حينئذ يقول باشمئزاز يكشف عن فكه الأسفل الأثرم ويهز بيده علامة اليأس ويقول :

ــ أولاد ليل إيه دول ؟. دول عيال .. أولاد الليل كانوا زمان .. إنما دلوقتى .. يا شيخ .. دول شوية عيال ..

وكنت أصدق عم خليل ، إذ من الحكايات التى كنت أسمعها كان واضحا أن عالم البطولات والأمجاد قد ولى بعد أيامه وعصاباته .. وكنت أتحسر حقيقة ويملؤنى الضيق لأنى لم أوجد قبل وجودى بأعوام وفاتنى

هذا الزمن القديم الحافل ..

شخص واحد فقط كنت إذا سألت عم خليل عنه لا يشيح بيده أو يشمئز وإنما يتولاه وجوم ويقول :

ــ آه .. الغريب أبو محمد .. دا ماله ده ؟.. أهو ده اللى فاضل من أيام زمان .

ذلك أن الغريب أبو محمد كانت شهرته كابن ليل مدوخ بوليس قد بدأت تعم الآفاق .. وكان من غير الجيل الذى يتحدث عنه عم خليل ، ولكنى حتى وأنا فى هذه السن كنت أستطيع أن أدرك بوضوح أن عم خليل لا يستطيع أن ينكر على الغريب مكانته ولكنه يفسر جدعنته ورجولته بادعاء أنه الجزء الباقى من الماضى الغابر !

وحين كنت أطلب من عم خليل وألح فى الطلب أن يجعلنى أرى الغريب أبو محمد ولو مرة واحدة ، كان يتنصل ويعتذر ويبدو عليه أنه أفاق من حالة التفتح الوجدانى الذى كان سادرا فيه ويقول :

ــ مالك انت يا بنى ومال الناس دول ؟.. يكفيك شرهم ..

فلا يفزعنى رده وأستنكر أن يكون هو نفس الشخص الذى كان من هنيهة يشيد بأولاد الليل وحياتهم وأشخاصهم وأنه هو نفسه كان منهم ، فيعود ويقول فى صوته الخائف خوف الموت من العودة .. أن الله قد رضى عنه .. وأنه تاب وأن هذا كان زمان وأيام زمان .. أما الآن فإنه يصلى والحمد لله ويصوم رمضان. والحقيقة أنه لم يكن يصلى أو يصوم وكنت أرى بعينى رجالا يأتون إليه ليخفوا عنده أشياء ويعودون بعد أيام يستردونها . وأراهم وهم يغمزونه ، وأراه وهو يعود إلىَّ وفيه اضطراب ، ..

ويقول !

ــ آه .. أيوه .. احنا كنا بنقول فى إيه ..

ويبدأ يتحدث فإذا بها نفس الحكاية التى قالها لى مرة ، وأصبر قليلا علها تكون مختلفة وإذا بها هى بنفس تفاصيلها ، فأقول له هذا فينتقل إلى مغامرة أخرى لا جديد فيها فهى أيضا قد سمعتها . ومع أنى كنت قد اكتشفت أنه لم يعد لديه شىء جديد إلا أنى لم أكف عن التردد عليه فى عشته التى كان يسميها (الطيارة) ويراقب منها بعين واحدة كليلة عليها سحابة فدادين الطماطم الشاسعة .. لم أكف لأنى فى قرارة نفسى كنت عن طريقه أريد أن أعثر على الغريب ، وكنت أعرف أنه خيطى الوحيد الذى لا أعرف سواه ، وكنت أطمع أن يحدث هذا يوما ما مهما كثرت الأيام ، وكانت الإجازة الصيفية تنقرض وأيامها تسرع ، وشغفى يزداد وأملى يكاد ينفد .

ولم أكن أتصور أن الإجازة لن تنقضى إلا وقد عرفت الغريب ، وعرفته بطريقه لم أكن أيضا أتصورها ..

— ٣ —

كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها وروميل فى العلمين ، والناس يتحدثون عن الحاج محمد هتلر وإشهار إسلامه وبقدومه المتوقع ليخلصنا من الإنجليز . أما عالم الليل فى مركزنا فقد كان مشغولا بأمر آخر لا يمت بصلة إلى هتلر أو روميل . أيامها كان ثمة أمر عسكرى قد صدر بترحيل

المجرمين المشبوهين إلى معتقل الطور ، ونشط كل مأمور مركز ونشط كل عمدة ونشط الحاقدون ومحترفو كتابة العرائض ، وفى كل بضعة أيام يتكون فوج من المجرمين فعلا ، والأبرياء الذين اغتنوا والأبرياء الذين زج بهم نكاية وزورا ، فوج يربط فى سلاسل من حديد وكلابشات ويرحل إلى الطور . أما مركزنا فقد رزقه الله بمأمور كان قريبا لأحد رجال السراى الذين تتحدث عنهم الصحف ، ولهذا رأى أن يفسر الأمر العسكرى بطريقته الخاصة ، وبدلا من أن يتعب نفسه فى عمليات الترحيل ومكاتباته واستماراته كان يتولى ترحيل المشتبه فى أمرهم ليس إلى الطور ولكن إلى العالم الآخر ، وبطريقة بسيطة للغاية لا سلاسل فيها أو كلابشات . كان إذا أفلح فى القبض على أحدهم وجيء به إلى المركز لا يدخله السجن ، وإنما يبقيه معه فى حجرته يحدثه ويؤانسه ويقدم له الشاى والمزاج ، ثم إذا هب الليل يدعوه إلى نزهة معه فى (البوكسفورد) وهناك على حافة البحيرة أو أحد المصارف الكثيبة المؤدية إليها يوقف العربة ، وينزل هو ويدعو ضيفه للنزول ، وبعدة طلقات ينتهى من أمره ثم يدفعه إلى البحيرة ولتظهر جثته بعد هذا أو لا تظهر ، فلا أحد شاف ولا أحد درى ، والحكومة أبدا غير حريصة على حياة المجرمين والمشتبه فى أمرهم ، ولا يمكن أن يثبت أى تحقيق يجرى طرف مسئولية عليه أو على أحد .

وبعدد هائل من هذه — الفسح — التى أصبحت بعد هذا معروفة ومشهورة ، استطاع المأمور الهمام أن يتخلص من عدد لا بأس به من المجرمين السابقين والحاليين والمشتبه فى سوابقهم أو لوائحهم ، حتى

أصبحت سيرة المأمور كقاتل أكثر سريانا على الألسن من سيرة أى ابن ليل عتيد ، وكان يصله ما يقوله الناس وكان يضحك ضحكا يسمع من شباك مكتبه فى المركز ويجلجل . ربما كان يجد هو الآخر لذة فى الخروج على القانون تفوق لذة تطبيقه .. المهم أنه كان فى أحاديثه الخاصة ومجالسه وبين مرءوسيه لا يكف عن ترديد أن كل ما حدث لا يعد شيئا . وأن الفسحة الحقيقية التى لن يهدأ حتى يحققها هى فسحته مع الغريب أبو محمد عميد أولاد الليل فى المركز بل فى المديرية وربما فى كل وجه بحرى ، ولم يكن راضيا أبدا عن مجهود مباحث المركز وعساكره ومخبريه .. فى كل يوم كان يعقد لهم طابور توبيخ وتأنيب وتقريع ، والعجيب أنهم كانوا يقولون إنه فى طوابيره تلك يستعمل ألفاظا لا يمكن أن يستعملها جامعو أعقاب السجائر رغم أنه كما يقولون أيضا يستمد نفوذه من صلته بالسراى والملك عن طريق قريبه هذا ذى المنصب الكبير .. ورغم الألفاظ والطوابير والتوبيخ فقد ظل الغريب مختفيا لا يقبض عليه ، حتى حين وصل الأمر إلى حد التحدى السافر وأصبح المأمور ينفق من ماله الخاص — وربما ليس بالضبط من ماله الخاص — ويرصد المكافآت ويؤجر العيون ويلعب من بعيد على شلبى الذى كان معروفا أنه ساعد الغريب الأيمن ويغريه — ويبدو أن هذا السلاح نجح ، فقد فوجئ أهالى المركز ذات يوم بأن الغريب محبوس فى المركز ينتظر مصيره المعلوم المحتوم ، وأن القبض تم بالاتفاق مع شلبى ، وأن شلبى قد قبض .

والمفاجأة التى لم يكن أى من أهل المركز وقراه يتوقعها هى تلك التى جاءت مع غروب الشمس ، حين قالوا إن الغريب قد هرب فى عز

النهار ، وأن الدنيا قامت وراءه و لم تقعد بعد ، وأن وقعة من يخفيه أو لا يبلغ عنه أسود من شعر رأسه .

تلك كانت المفاجأة التي لم يفق منها أحد في المركز أو قراه والتي ظلت حديث الناس أياما ، والتي أصبح موقف الناس بعدها كموقف المتفرجين على عسكر وحرامية ، ولكنها لعبة خطرة يشاهدونها ويتحدثون عنها فى السر وبأصوات منخفضة ، وينهر الجار جاره أو الصديق صديقه إذا رفع صوته وتحدث مذكرا إياه بالمخبرين الذين أطلقهم المأمور يتجسسون ويعدون الأنفاس ويتسلمون غبار الغريب .

حتى نحن شلة الطلبة والتلامذة الذين كنا نسهر على حائط الكوبرى الأسمنت الناعم فى ذلك المساء نتسامر ونتحدث عن المطاردة الخطرة ونحن مطمئنون تماما أن لا مخبر بيننا أو بوليس . كنا نتحدث فى خوف وهمس ويستغرقنا الحديث تماما حتى ننسى أنفسنا ولا نصحو إلى على تحذير صادر من أحدنا يقول .. إن لليل آذانا وإن من المستحسن أن نسد أفواهنا ونسكت .

وكنا نصمت ويبدأ خوفنا يطغى ، فالدنيا كلها كانت قد عرفت أن الغريب لم يبارح المركز أو قراه زيادة فى تحديه للمأمور ، وأنه يستعمل الأذرة الصيفى بعيدانها الطويلة وتشابكها الذى يخفى الفيل لو أراد .. وكان حديثنا عن الغريب خطرا من الناحيتين ، كنا نخاف المأمور وعيونه من ناحية ، والغريب من ناحية أخرى ، إذ من يضمن أننا إذا تحدثنا لن تفلت من أحدنا كلمة .. كلمة قد يشيد فيها بالغريب فيغضب علينا المأمور ورجاله وآه من غضبهم ! أو قد نشيد فيها بالمأمور فيغضب علينا،

الغريب وآه من غضبه هو الآخر وسكينه التى كانوا يقولون إنه يربطها حول سمانة رجله !.. بل أكثر من هذا كانت جلستنا نفسها نوعا من التهور سننال عليه بالتأكيد علقا وتأنيبا ، فأهلنا وأهل البلاد كلها يحيون فى حالة رعب من اللحظة التى عرف فيها أن الغريب قد هرب وأنه يختفى فى حقول الأذرة وأنه يظهر بالليل أحيانا ليغتصب الطعام والنقود .. وكان رعبهم هو الآخر مزدوجا ، وكأن كلا منهم كان يتصور أن المأمور سيوجه إليه تهمة التستر على غريب هكذا لله فى لله ودون حتى أن يراه . ولهذا كانت قرى مركزنا تشطب من المغرب والبهائم تروح قبل ذهاب الشمس ، وتصبح الحقول والشوراع صحراء ليلية جرداء لا حياة ولا حس ، ليس فيها سوى دوريات رهيبة مسلحة ومصفحة تجوب ظلام الليل وصحراءه بحثا عن الذئب المختفى فى مكان ما منه .

ولأن كل هذا كان يدور فى خواطرنا بسرعة إذا صمتنا فصمتنا كان لا يطول .. فى الحال نجد أحدنا قد بدأ يتحدث والآخرين قد بدءوا يشاركونه ، وإذا بالحديث يعود رغما عنا سيرته الأولى ويعود كل منا يسأل الآخرين بينما هو فى الحقيقة يسأل نفسه : ماذا يفعل الواحد منهم لو لقيه الغريب وهى فى طريق عودته إلى بيته ؟ وعاصفة خوف هى التى كانت تجتاحنا لدى إلقاء السؤال . خوف مبالغ فيه ، إذ الواقع أن هاتفا خفيا فى قرارة كل منا كان يتمنى لو حدث هذا ، ولكن يتمنى ماذا ؟ كان مليون هاتف آخر يتصايحون فورا فى جوفه ويقتلون ذلك الهاتف الخافت ، وبسرعة تتحرك دوافع الجبن لتأخذ من الشجاعة كل سماتها وأرديتها وتحتل المقام الأول ، وتجعل من دوافع الشجاعة حيثيات تهور

وجنون وقلة عقل ..!

وفى تلك الليلة حين تكاثر الخوف حتى فض سامرنا ومجلسنا ، نفس الخوف الذى كان يبقيه ويمنعنا من الحركة ، وقام البعض يتشبث بزملائه ويحتمى بهم ويطلب منهم أن يوصلوه ، وقام آخرون يختارون أسلم الطرق وأقربها إلى البيوت ، وحين قمت بدورى لم أكن أعرف ولا كان حتى باستطاعتى لو أردت أن أتخيل أن الصدف اختارتنى ليلتها ليخرج على الغريب من بين عيدان الذرة ، ويجفف الدماء من عروق بمثل ما حدث ..!!

— ٤ —

من الصعب على جدا أن أحدد إن كنت لم أستشعر أبدا أنى سألقاه ، ولكنها لم تكن حاسة سادسة أو إشارة من المجهول .. كان شعورا عاما غمرنى وجعلنى لا أعتقد أن هناك فارقا كبيرا بين أن ألقاه أو لا ألقاه ...

كان علىّ لكى أصل إلى بيتنا أن أمشى على جسر الترعة مع بقية رفاقى ثم نفترق ، حيث يستمرون هم فى سيرهم إلى البلدة وأنحرف أنا فى طريق ضيق يدور حول طرف البلدة وتحده المساكن من ناحيـة والأرض المزروعة من ناحية أخرى .. والعجيب أن الخوف انتابنى فقط وأنا معهم .. أما حين أصبحت وحدى فقد تلاشى الخوف فجأة ، ومع هذا

لم أعد إلى حالتى الأولى ، اضطراب عظيم وجدته يعصف بى وكأن الخوف قد وصل إلى أن أصبح فوق متناول حواسى ووعيى وانقلب إلى حذر عظيم واستعداد جنونى للدفاع عن النفس ، وحساسية مطلقة لأخفت الأصوات ، والتهاب الخيال إلى درجة يرى فيها أى بياض فى الليل جلبابا وأى سواد شبحا وأى حركة طعنة .. وكان لم يبق على انتهاء حقل الأذرة الصيفى الذى كنت أسير بحذائه إلا بضعة أمتار بعدها أمر بأرض القمح المنخفضة حيث الاحتمالات أقل والأمان أكثر .. والأذرة فى الليل لها وشوشة تحدثها أوراقها الطويلة الحادة كالموسى الخشنة كالمنشار ، خاصة حين يفاجئك حدها فى جبهتك أو يلسعك وهو يصك يدك .. وأنا خائف أن أبطئ ، وكل ثانية تمر قد تحدث فيها الكارثة ، وجاءنى شيء من خلف ظهرى كالهبهبة حسبتها أول الأمر هبهبة كلب ، ولكنها كانت كلمة .. « وله » .. بسرعة الومض خطر لى أنها بالتأكيد ليست هبهبة ولكنها كلمة .. أمر من إنسان . وخطوت خطوة ثانية . وجاءت هذه المرة واضحة أخرست وشوشة الذرة وأصمتت صراصير الليل وأزيزه ..

— وله ..

نفذت إلى آمرة سريعة ، فيها دعوة أحسست بعدها بصمم دافئ وكأن أحدهم صب ماء ساخنا فى فتحات أذنى .. ولم أعد أسمع ولا أتحرك أو أتنفس أو أفكر .. وفى عقلى شيء واحد يدق ولا يتغير :

— لقد حدث .. لقد حدث .. لقد حدث !

لحظة واحدة هى التى استغرقها كل ما دار ولكنها من اللحظات التى

يجلس الإنسان بعدها ساعات ليستطيع أن يلم بكل ما حدث فيها ويرتبه ويجعله يخضع للمنطق والمعقول .. لماذا لم أجر وقد كان باستطاعتى أن أفعل ؟. لماذا انكتم الصوت فى حلقى الجاف و لم أصرخ ؟. لماذا لم أكن أريد أن أجرى أو أصرخ أو حتى أتنفس ؟. لماذا التفت فجأة إلى الخلف فى حركة مذعورة وقلت بتلك الحشرجة المرتفعة التى ملأت صوتى المراهق برنين أصوات الرجال وخشونته :

ـــ أيوه .. عايز إيه ؟

ـــ ما تخافش يا شاطر ..

هل معقول هذا؟.. وهل يخضع الخوف أحيانا للأمر، أو لأمر قادم من شخص معين بحيث إذا جاءك وجدت نفسك فعلا قد كففت فورا عن الخوف؟ ولكن إذا لم يكن هذا صحيحا فبأى شيء استطعت أن أدفع هذا الخوف وأجعل ما أصابنى من خوف يتلاشى وكأنه ذاب؟. جسدى فقط هو الذى تولته رعشة.. رعشة بلا خوف.. وكأن الخوف قد غادر رأسى وصدرى إلى الأبد. وركب أطراف وأرعشها بطريقة جعلت همى كله يصبح أن أوقف ارتجاف الظاهر هذا وأستجمع إرادتى كلها لآمر بها أطرافى أن تكف عن خوفها.. بلا جدوى، بل بالعكس كلما أمرتها كانت تزداد خوفا وارتعاشا.. والحقيقة المالئة رأسى لحظتها أنى لا يجب أن يظهر علىّ علامة خوف واحدة حتى ولو كانت ارتعاشة، ووجدت السؤال ينطلق منى بلا تفكير إلا أن أوقف أسنانا تصطك وركبا تهتز.. بلا تفكير إلا أن تمر اللحظة الحاضرة، فقط تمر وبأى ثمن، إذ لأمر ما كنت اعتقد أنها لو مرت بسلام فسأملك أمر نفسى بعدها

وسأنجح فى التصرف ..

ــ من أنت ؟

شخطة خرجت منى ولا شخطة المأمور .. أو الغريب نفسه إذا صادف شحاذا أو متسولا .. وبسرعة وقبل أن تصطك أسنانى مرة أخرى أعقبتها :

ــ انت مين ؟

وجاء الصوت الذى لم أكن إلى ذلك الوقت قد عرفت من أين يجىء وهل يأتى من أمامى أو من خلفى .. أو حتى يخرج من باطن الأرض :

ــ إنى غريب ..

وانطلقت مرة أخرى وكأننى مسدس الخائف حين لا يصبح همه إلا أن يطلق الرصاص .. ولا يكف إلا بعد أن يفرغ رصاصه .. انطلقت لأقول : أنت غريب والا الغريب ؟.. ولكن شيئا غريزيا أوقف الجملة الطلقة فى حلقى وجعلنى أقول :

ــ انت الـ .. وبتقول « وله » ليه ؟.. ما تقول سلام عليكم يا أخى .. ما تقول سلام عليكم ..

قلتها وانتهت طلقاتى وسكت .. وسكت الصوت الآخر . انتهى بعدها صمم أذنى وعاد إليها أزيز الليل .. وبدأت أنفاسى تتلاحق وتعمق ، ورحت أفكر فى أن أطلق ساقى للريح وأجرى وأستغيث ، ولكن شيئا كامنا فى نفسى ظل يردد لى أننى لن أفعل شيئا كهذا ، وأن ليس باستطاعتى أن أتحرك من مكانى خطوة حتى لو أردت ..

وطال الصمت أو ربما طال فى نظرى .. وخيل إلى أن كل شىء قد

انتهى .. وأن صاحب الصوت لا بد قد ذهب ، ولكن أبدا .. إحساس غمرنى وجعلنى أحس أنى أراقب،وأن عينين لا أراهما تدرسانى خلجة خلجة، وأن أمرى وصغر سنى لا بد سينكشفان حالا .. وستحين لحظتى القاضية . وياله من شعور أفزعنى وأنا واقف عارى الرأس مخلوع الصندل ، تحت سماء بدا قمرها الجامد يختنق وينزوى وظلامها الكامل يطبق ، والشعاعات غير المرئية تخرج لابد من مكان داخل هذه الشجيرات المتكاثفة لتتفحصنى على مهل وبتمعن .. أنا المتجمد فى مكانى لا بقوة الرعب فقد ذهب الرعب ، ولكن بقوة ما بعد الرعب ، بقوة الشعور الذى يجمد الفأر فى مكانه حين تنغلق عليه المصيدة ، بحيث حتى لو فتحت له بابها لما استطاع أن يهرب منها ..

ومن الظلام المخفف بظلال العيدان سمعت ضحكة .. بالضبط لم تكن ضحكة ممكن أن يقاس نوعها وطولها .. كانت إذا قيست بالضحك الحقيقى حسبتها حبة من مسبحة .. أو قطرة من ماء . أو عينة من ثوب قماش .. وآخر ما كنت أتوقعه من نفسى هو أن أغضب لسماعها .. غضبت ، بل أكثر من هذا أحسست أنى أكظم غيظى ، ولكنى سكت ..

ـــ انت ابن مين يا شاطر ..؟

وكاد غضبى يتحول إلى حركة وقول لدى سماعى السؤال وخاصة لدى كلمة « شاطر » ، ولكنى لا أعرف لماذا هدأت للسؤال وحل الاطمئنان فى قلبى .. وقلت :

ـــ أنا ابن فلان ..

ـــ أبوك رجل طيب ..

والحقيقة لم أسمع بقية إجابته .. فقد وجدت العيـدان تشخشخ وتتأرجح ثم يبرز على أثر الكلام من بينها امرأة قصيرة القامة ترتدى ثوبا أسود وطرحة سوداء وبرقعا ذا قصبة ذهبية لمعت بشحوب تحت شعاع القمر الأصفر ...

٥

من الممكن أن يعتقد البعض أنه كان حريا بزيه هذا أن يبعث فى نفسى السخرية والاستهانة بصاحبه ، ولكن العكس بالضبط هو ما حدث .. فقد أحسست فعلا بشعرى يقف وقشعريرة ملتهبة تغمر فروة رأسى وأنا أرى الغريب قتال القتلة ومدوخ المديرية يرتدى ثوب النساء الأسود ويضع مثلهن البرقع .. وأن يظهر لنا العفريت كعفريت شيء يخيف ، أما أن يظهر فى صورة « عرسة » فشيء لابد أن يبعث على الرعب المميت ..

وخطا الغريب بضع خطوات ناحيتى وهاتف الجرى عند كل خطوة يعلو نداؤه وترجع رأسى صداه ، ولكنه فجأة جلس وقال : قعد .. وفى الحال قعدت ، وإن كنت قد افتعلت البطء والتؤدة وأنا اجلس .. كانت حافة « القيد » الذى تروى منه الأرض والذى جلسنا عليه لا تهيئ مكانا لجلسة مريحة ، ولكن مشكلتى لم تكن فى الجلسة . مشكلتى كانت فيما يريده الغريب منى ، هو يريد الناس لقتلهم مثلا أو ليعورهم أو ليأخذ منهم نقودا،فماذا يريد منى وهو لم يقتلنى،ولا يعقل أن يكون معى نقود، ويطلب منى أن أجلس !

جلست فى صمت ، وهممت أن أتكلم ولكنى أمرت بالسكوت .

أمرني ذلك الكائن الغريزي الذي يتولى أمرنا وحكمنا في أوقات كتلك ، أوقات لا نعرف فيها نوايا وأهداف من نكون معهم .. خاصة إذا كانوا من زملاء الليل أو أمثال الغريب .

لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيته .. كنت قد لمحته وحدقت فيه ، وكنت أعرف أنه أمام عيني وبجواري ولكنني لم أكن قد رأيته .. السياج الرهيب الذي كان يحيط به .. الذين قتلهم والذين طاردهم والذين طاردوه ، والحكومة التي يعاندها والحكومة التي تريده ، وتاريخ طويل من القصص والروايات والأحاديث منسوجة وملونة ومحبوكة كانت تحيط به من كل جانب ، ولا أستطيع معها أن أراه حتى وهو في ملابس النساء تلك ، بل لم تفعل ملابسه أكثر من أنها أضافت للسياج الوهمي سياجا حقيقيا ، وتفاعل السياجان ليجعلاني أحس به موجودا وغير موجود هو الجالس بجواري ويكلمني ولا يمكن أن يكون هذا شخصه أو الكلام كلامه .. أمعقول هذا ؟ الغريب هو الجالس على حافة القيد يحادثني ؟ كان يخيل لي في لحظة أن من أراه في تلك الثياب السوداء ليس سوى ظل لعملاق رهيب لا يزال كامنا في الأذرة ، وفي أحيان يخيل إلي أن الثوب خال من الداخل وأن الغريب ما هو إلا نقطة زئبقية داخلية لا يمكن إمساكها أو القبض عليها ..

وأخرج علبة الدخان من جيبه أو هكذا تمنيت ، فأي حركة منه كانت ترعشني وتجعلني أنتفض مترقبا غرزة السكين المربوطة على فخذه في صدري ، وقال : — تاخذ سيجارة ؟

قلت : — كتر خيرك ..

قال : ــ خذ ..

قلت ، وأيامها كنت أدخن خلسة سيجارة أو سيجارتين فى اليوم .. قلت متصنعا الأدب :

ــ ما بشربش ..

هز رأسه فى سخرية وقال :

ــ بتشرب .. خد ..

وادعيت كأنما براعته قد كشفتنى فقلت :

ــ علشان خاطرك حاخدها ..

مد لى السيجارة وأشعل عود الكبريت من علبة ذات ستين عودا « ماركة الخيال » ومد العود ناحيتى قائلا :

ــ ولع ..

وآليت على نفسى ألا أشعل سيجارتى قبله وأقسمت ، ولم يفعل قسمى أكثر من أنه أطفأ العود وقرب رأسه ذات البرقع الذى كان قد رفعه ليشعل اللفافة منى ، وأشعل الكبريت مرة أخرى ، ولأمنع انطفاءه قربت رأسى ، وليمنع انطفاءه قرب رأسه ، وانفجرت الشعلة تضىء ما بيننا ، وتضىء ــ أعوذ بالله أعوذ بالله ــ وجهه ، وكأنما أضاءت وجه جنية عيونها مخططة بالطول ، وكأنما أضاءت وجه نعجة شيطانية مجنونة ترتدى برقعا ..

سقطة السيجارة من فمى هى فقط التى عرفتنى أن فمى مفتوح وأنى خائف جدا ، وكأن كل ما فات من خوف لم يكن سوى التثاؤب الذى يسبق المرض . أما وأنا أحدق فى وجهه فهو الخوف ، المرض ، الحمى

الباردة التى تهد الجسد وتضعضع العظام ، الحمى التى ترجفنى ، حمى الخوف التى أدركها بوعى محسوسة ملموسة .

ورغم هذا ما أعجب قدرتنا ! ما أعجبنا نحن بنى الإنسان ! لو كنت حيوانا .. وأحسست بمثل ما أحسست لفقدت السيطرة على نفسى ولظللت أجرى وأركض رعبا حتى لقيت حتفى ، ولكننى فى اللحظات التالية كنت بقدرة الخوف الخارقة قد ملكت السيطرة على نفسى تماما ، وجلست بجواره أيضا أدخن السيجارة العربى « الملكونيان » التى عزم علىّ بها ، وأدوخ .. فقد كنت حديث العهد بالتدخين وبابتلاع الدخان ، وأرد على أسئلته بثبات أو بمحاولات جادة يائسة للثبات غالبا ما كانت تنجح ، وغالبا ما كانت إجاباتى تخرج مفهومة معقولة تكاد تبدو طبيعية .. سألنى عن دارنا وأين هى من جلستنا ، وسألنى أين كنت ومع من وماذا قلت لهم وماذا قالوا لى وماذا يقول الناس عنه .. و لم يفتنى وأنا فى حالتى التى أتأرجح فيها بين « الهىّ والهوى » تلك أن ألاحظ غبطته الساذجة لكل كبيرة وصغيرة قلتها له نقلا عن الناس بل وألفتها أيضا ، وما أيسر التأليف علىّ وأنا أحاول أن أرضيه وأجعل أقوالى كمرآة مكبرة يرى فيها حجمه مضاعفا وبطولاته أطول من المآذن وسعف النخيل .

وأنا آخذ آخر أنفاس سيجارتى وكانت المشكلة لا تزال تلسعنى ولا أزال أريد أن أقول له كم حاولت أن أراه وألقاه ، وأشهد عم خليل و « طيارته » غير بعيدة على أقوالى ، وأتردد لا لشىء إلا لخوفى من أن يفسر رغبتى فى رؤيته تفسيرا يجلب غضبه ، وأخشى ما كنت أخشاه لحظتها

أن أقول كلمة أو أقدم على حركة تثير غضبه.بل كان يخيل لى أحيانا أنه سيغضب فجأة من تلقاء نفسه كالمجاذيب وأهل الله .. وكأن أخلاق أهل الليل قريبة الشبه جدا من أخلاق أهل الله . ولكننى نسيت المشكلة تماما بل نسيت نفسى والمكان والزمان فى طرفى الكماشة اللذين أطبقا على بلبلة أذنى وأنا أدفن بقايا السيجارة فى طين القيد .

— ٦ —

أصابع لا يمكن أن تكون أصابع .. لا بد أن عظامها من الداخل كانت حديدا ، والجلد فوقها قد جف من زمان وتحجر . خيل إلى أن جسدى كله يحمر للقرصة، ومع هذا فقد كنت أحسن بالأصابع الكماشة لا تقصد بها الجد والأذى بقدر ما تريد التنبيه المغلف بهزل .. وصوت يأتينى من وراء البرقع الذى أعيد كقناع الديك الرومى إلى مكانه :

— وبتشرب سجاير ليه ؟..مش عيب ؟

و لم أتأوه .. خوفا ، وربما حسبها جدعنة ولكنها كانت والله خوفا ، وحتى سكونى بعد هذا وهو يسألنى هل أصلّى مثل أبى المشهور بصلاحه .. ثم نطقى حين ازدادت الضغطة وقولى :

— لاه ..

وتزداد القرصة ويجيئنى السؤال كلفحة النار الهادئة :

— ليه ؟

فأقول :

— ح اصلى .. ح اصلى ..

وحينئذ أحس بجسدى يبرد وينتعش ويعود إلى الحياة إذ الكماشة كانت قد تركت أذنى ، ولكنى ما كدت أتنفس حتى دوت خبطة أو خبطتان على ظهرى كدق الساطور على جسد الذبيحة المنفوخ ، والغريب لعنة الله عليه يقول :

— لا والله .. انت واد جدع .. يحميك لابوك .. لولا انك جدع لغرزتك زرع بصل فى القيد ده .. اقف ..

ماذا أفعل ؟ وقفت .. قرب هنا .. قربت .. هات ودانك .. أذنى التى كنت لا أزال أحس بها حمراء كالجمر المضىء فى ظلمة الليل هى نفسها التى قربتها ، وهى نفسها التى سمعته .. سمعت قحة الغريب أبو محمد وهو يقول :

— آنى جعان يا ولد ..

أقسم أن صدرى لم ينشرح لكلمة سمعتها من إنسان بمثل ما شرحت صدرى تلك الكلمة وأزالت كل ما تراكم فيه ليلتها من اضطراب ورعب وارتجاف وهوس .. واستقرت فى أعمق أعماقه وراحت تدوى ، دويا غريبا حبيبا ، نداء . النداء الذى تتجمع له النخوة والحب والرغبة العارمة فى التضحية ، وأسهلها التضحية بالنفس وبكل هذا ، وبكل ما حدث فىّ وما انداح من صدرى قلت فى شبه هتاف :

— تحب تاكل إيه ؟

ــ أى حاجة .. وان كنت تقدر هات لى صندوق دخان وحجر بطارية وقله ميه ..

واستدرت لأجرى ولكننى لم أتحرك ، فيده المهولة كانت قد أمسكت بذيل جلبابى .. وعدت أواجهه فوجدته يرفع البرقع ويقول :

ــ كلام رجاله ؟!

وجمت .. فقد أحسست أنه يهيننى ، وربما القمر الساقط على وجهى الشاحب اللاهث قد انبأه هو الآخر أنى أكاد أبكى تأثرا ، فترك الذيل ولكننى لم أتحرك .. ظللت واقفا ، وأيضا لا أستطيع أن أتكلم .. كنت أريد أن أقول له أشياء كثيرة جدا ، ولكنى لم أكن أعرف كيف أقولها ، ربما لأنى لم أكن أعرف بالضبط هذه الأشياء الكثيرة التى أريد قولها ، وربما لأنى لدى كلمته هذه بدأت أفقد الحماس الدافق الذى أشاعه طلبه فى صدرى وبدأت أفكر فى أن أذهب وأوقظ أبى والخفراء والعمدة ونمسكه .

وقفت حتى قال :

ــ روح .. يا للا ..

قلت له :

ــ مش خايف منى ؟

قال بهدوء آمر هامس ينفذ إلى النخاع :

ــ روح ..

وبخطوات مضطربة مضيت أتخبط فى الطريق إلى بيتنا القريب ...

— ٧ —

قطع الشوربجى كلامه مرة ليقول :

ــ من كان يصدق أننى سأعود إليه بعدما نفدت بجلدى منه ، ومن كان باستطاعته أن يصدق أن علاقة طويلة ستنشأ بينى وبين الغريب ، علاقة أصبح فيها محل ثقة حتى ليأتمننى على زوجته الحلــوة الصغيرة « وردة » أحلى وأجمل وأنضج من رأت عيناى ؟

لا بد أن الإنسان هو الذى يتمتع وحده بتلك الخاصية المجنونة خاصية أن يرى الخطر ماثلا أمام عينه أحيانا فلا يهرب منه كما تفعل الكائنات ، ولكنه بكل طيش يواجهه ويسمى هذا شجاعة ويفخر بها .. لا بد ، وإلا لما كانت هناك قوة فى الوجود تستطيع أن تعيدنى إلى حيث يختفى الغريب محملا بكل ما استطعت العثور عليه فى بيتنا من طعام ، وبقلـة الماء المخصصة لأبى والتى كان لا يجرؤ أحد من أهل البيت على لمسها ..

* * *

تلك كانت قصة لقائى بالغريب لأول مرة والذى حدث أنها لم تكن الأخيرة ، فلقد ظللت أياما كثيرة أقابل الغريب وأحمل له الطعام والماء وكل المطالب الصغيرة التى يحتاجها اختفاؤه الكامل ، ولم تكن المهمة سهلة فالطعام فى القرى لا يباع أو يشترى ، وكان لا بد من التحايل الكثير لإحضاره من بيتنا واختلاق الحجج للتزود ببعضه من بيوت أهلى

وأقاربى . وكان الغريب أول الأمر يعاملنى بحرص شديد فما ذهبت له مرة بالطعام ووجدته فى المكان المتفق عليه ، كنت أجد مكان الانتظار دائما خاليا فأقف ، وأظل أتأرجح بالشك والخوف حتى يخرج على من حيث لا أدرى وبعد أن يكون قد أطمأن إلى أنى بمفردى .. وكنا لا نلتقى إلا ليلا فى تلك الفترة الكائنة بين المغرب والعشاء .. ورغم سنى الصغيرة وغرابة هذه العلاقة فلم يطلب منى الغريب أبدا أن أبقى ما يحدث بيننا سرا ، ولكننى أنا كنت على استعداد لأن أموت قبل أن أطلع عليه أحدا .. وما أروع تلك الأيام القليلة التى عشتها أمينا على سر الغريب وصلته الوحيدة بالحياة .. كنت أحس طوالها أنى أخيرا وبطريقة لم تخطر لى على بال قد استطعت أن أدخل ذلك العالم الذى عشت أحلم بالحياة فيه ، وما أروع المرات التى شاطرته فيها الطعام أو التى طالت جلستنا فيها ودار الحديث .. حديث كنت أقوم أنا بأغلبه تاركا للغريب مهمة تشجيعى على المضى فيه أو قطع حبل استماعه بسؤال ، وما أتفه ما كانت تبدو لى أحداث حياتى الكبيرة وأنا أحدثه عنها .. ما أتفه ما كانت تبدو خلافاتى مع الناس وخناقاتى واشتباكاتى وأنا أقولها للرجل الذى يقتل الناس لأى هفوة ، وأحيانا بلا هفوة ..

وقد اقتضانى الأمر لقاءات كثيرة .. وأحاديث ممتدة لأستطيع أن أراه رأى العين وأتعرف على ملامحه . كان أول ما يجذب انتباهك حين تراه شارب أسود كث بدأت تظهر له شعرات ناصعة البياض يمتد بعرض وجهه ، وتحس به يبتلع ملامحه كلها ويستولى على عينيك ولا يدع لك اهتماما آخر توجهه إلى أنفه الحاد الرفيع الذى ينتهى فجأة وكأنما بمطب

عند شاربه ، ولا عينيه الضيقتين اللتين تآكلت بعض رموشهما واحمرت، وكان أعجب ما فيه يداه إذ كانتا صلبتين صغيرتين أصغر حجما من يدى وأقصر أصابع ، وحتى « بلغته » كانت صغيرة تحس أنها فصلت لصبى أو أنها بلغة فتاة .. ومرة لاحظت أنه بالكاد يلاحقنى فى الطول إن لم أكن أنا أطول منه بقليل ، وأنه حين ينهى ضحكه بشخشخة صوتية اعتادها ربما ليضفى نوعا من الخشونة على ضحكه .

بعد ليال كنت قد أخذت عليه إلى درجة أنى سألته مرة سؤالا لا يوجهه إلا « عيل » مثلى — على حد رأيه — أو مجنون . سألته لماذا هو قتال ؟ ولماذا لا يحيا كالناس الذين خلقهم الله وسواهم ؟ وماذا دفعه فى الطريق ؟ ضحك للسؤال وشخشخت ضحكته وقال :

— الله يقطعك يا شيخ .. وانت قد السؤال ده ؟ طب اسأل حاجه تانيه .

ولكنى وبطريقه صبيانية ، وكأنما أتدلل على أبى ألححت عليه أن يجيب .. حينئذ فقط وبعد إلحاح سهم وشردت نظرته حتى خفت أن يكون مشغولا بتتبع مصدر ما للصوت ، إذ ما كان أرهف أذنيه لأقل الأصوات وأضألها ! ثم قال :

— الحق الحق مش عارف ، إنما اللى أقدر أقول لك عليه إنى كنت كل مرة يا قاتل يا مقتول .

قلت مبهورا وقد خيل إلى أنه بدأ بعظمة لسانه يفتح لى أسرار عالم الليل الرهيب :

— ازاى ؟ قاتل يا مقتول ازاى ؟

— يعنى يا كنت اقتل يا أتقتل ، فكنت باقتل .

قلت وأنا أمد انبهارى وأطيله لأشعره به :

— كل مرة كده ؟

— كل مرة كده ..

— حتى أول مرة ..

هنا سكت وعاد يسهم ثم قال :

— لا .. هى المرة الأولانية هى اللى صعبة .. كنت زارع عند واحد .. كلنى ، طالبته مره واتنين وتلاته وسقت عليه النـاس مارضيش ، قالوا لى بلغ فيه بلغت ، حطونى أنا فى المركز وضربونى .. وانا فى السجن صممت انى اقتله . ويوم ما طلعت تماما بعت العجلة واشتريت بندقية وطخيته قدام باب بيته . حققم معايا وانحبست انما ما ثبتشى عليا ، أهله راحوا أجروا واحد يقتلنى ويا خد بتاره . أستناه لما يقتلنى ؟ قتلته قبل ما يقتلنى ، وعليها يا سى عبد الرحمن :

قلت أقاطعه :

— يعنى .. الـ .. الراجل ده .. ما . ما . ما زعلتش لما قتلته مثلا يعنى ؟

— زعلت أمال ما زعلتش . قعدت شهر ما ادقش زاد ولا ميه وعييت ، ما خلصنيش م العيا إلا اما عرفت أن أهله مأجرين علىّ واحد يقتلنى .

وسكت سكوتا مفاجئا جعل الاضطراب يدب فى نفسى ، والتفت إلىّ مرة واحدة وقال بصوت عال رفيع :

ـــ وانت بتسأل عن كده ليه ؟

فقلت له برهبة وصوت متهدج بالخطورة :

ـــ أصلى عايز اقتل واحد .

ضحك وضحك حتى دمعت عيناه ، ثم قال وهو لا يزال يضحك

ـــ تقتل واحد مين ؟ قل لى عليه وأنا أقتله لك .

قلت له :

ـــ مش واحد محدد ، أى واحد .

قال بدهشة :

ـــ أى واحد .. ازاى يعنى أى واحد ؟

قلت :

ـــ أى واحد كده .

وكانت فى الحقيقة مهمة صعبة أن أشرح له ما أريد ، وأخبره بالتفصيل عن تلك الرغبة الخفية التى تروادنى والتى جعلتنى ألازم عم خليل وأتمنى أن ألقاه هو ، والتى ما جرؤت أن أصرح بها لأحد سواه . نظر إلىّ بركن عينه نظرة اكتشفت معها أنه حين ينظر بركن عينه يحول ، وقال :

ـــ بتتكلم جد ؟

وقلت وكلى صدق ومن أعماق قلبى :

ـــ والله بتكلم جذ . أمال أنا بكلمك ليه ؟

ـــ بتكلمنى ليه ؟

ـــ عشان انت اللى ح تعلمنى اقتل ازاى .

ضحك حتى كاد ينفجر ، وقال وهو يخبط على كتفى :

ــ مش عيب يا أستاذ الكلام ده ؟ أعلمك القتل ازاى ، هو كوتشينه يا فندى ؟

وأحسست أنى أهنت خاصة لكلمة أفندى وهو ينطقها بطريقة ممدودة الحروف . مع أنى لأمر ما كنت أعتقد أنه هو الوحيد الذى لن يسخر من رغبتى هذه لو حدث وقلتها له ، بله أن يضحك على وعليها كأى عابر سبيل أو زميل من زملاء الدراسة . أحسست أنى أهنت ، و لم أشأ مجادلته مخافة أن يأخذها هزلا ويضيع حلم حياة بأكملهــا .. وسكت .

وسكت هو الآخر ، ثم وجدته بعد فترة يطبطب على كتفى و كأنما يصالحنى ويقول :

ــ وإذا كان نفسك يا سيدى تقتل بخليك تقتل ، المسألة بسيطة .

قلت وقد عاودنى الأمل :

ــ والنبى ؟

قال :

ــ بس على شرط ح اكلفك بمأمورية تقدر تعملها ؟

ــ واعمل أبوها كمان .

— ٨ —

وحتى تلك اللحظة لم أكن قد نظرت للغريب أبدا باعتبار أنه إنسان مثلنا ممكن أن تكون له زوجة أو يكون من عائلة وله والدان ، وقطعا لم يدر بخلدى أن تكون له مثلا زوجتان ومن يدرى ربما أكثر .. المشكلة أنه لم يترك لى وقتا للتأمل أو الاندهاش ، على الفور مضى يحدثنى عن تفاصيل المهمة التى تنتظرنى والتى كان على فيها أن أوصل للزوجة الأولى ورقة بخمسة جنيهات وأن آتى له بالثانية .. والأولى كانت فى بلده القريب من بلدنا سمراء كالحدأة جافة رفيعة كعود السنط الجاف ، وأولادها على الأقل أكثر من عشرة وكلهم لهم نفس سمرتها وعودها الجاف . وطلعت عينى وهى تسألنى عن كل كبيرة وصغيرة من أمر الغريب وتستريب ، وتعود وتلح لتتأكد حتى تشهدت حين انتهت المهمة وأفرجت عنى .

أما مهمتى الثانية فكانت لوردة أحدث زوجاته التى لم أكن أتخيل أنها على القدر المذهل من الأنوثة والليونة والجمال . لم أكن قد ذهبت أبدا إلى العزبة التى وصفها لى الغريب ولكنى كنت أعرف أنها تقع فى منتصف المسافة بين كيلو ١٤ وبين محطة الطلمبات التى ترفع مياه المصرف الكبير إلى مستوى ماء البحيرة .. واخترت أن أذهب فى شيخوخة العصر حتى أعود بها والدنيا ظلام ، وكنت مضطربا خائفا أتحاشى الناس واتصور أنهم يعرفون وجهتى ويعرفون حتى (الأمارة) التى زودنى بها الغريب ،

لتؤمن (وردة) أنى قادم من عنده.. ويا لها من أمارة ، أمارة ما طلبت منه أن يأتى لها بقلم حواجب أسود ، أمارة لم أستسغها أبدا ولا هضمت أن ينطقها الغريب بلسانه ويشغل نفسه بها إلى درجة أن يتذكرها .

حين وصلت كانت العزبة لا تزال خالية إلا من النساء العجائز والأطفال ، وقوبلت بعاصفة نباح هائلة من كلاب كثيرة هزيلة يكاد يقتلها الجوع وظلت تطاردنى حتى كدت أعود لولا الفلاحة الضخمة الملوثة الملابس بالطين والتى ظهرت فى الوقت المناسب لتحول بينها وبينى .

ثم تقودنى لبيت « وردة » وتتطوع من تلقاء نفسها بتعليل زيارتى فتسألنى :

ـــ انت يا خويا من قرايبها بتوع المحطة ؟

وكانت تقصد بالمحطة البندر حيث السكة الحديد وحيث درج الناس على تسميته بالمحطة . وهى أيضا التى دقت الباب بيدها الملوثة ونادت على وردة وطلبت منها أن تفتح « للضيوف » .. وأجابها من الداخل صوت حافل بزغاريد أنثوية رقيقة لكنها بندراوية راقية حلوة .. صوت بدا غريبا غير متوقع فى ذلك المكان النائى الموغل فى بعده عن كل ما يمت إلى الرقى والحلاوة بصلة .. وفتح الباب ولومضة خاطفة لمحت أجمل وجه وقعت عليه عيناى ، وجه أبيض يكاد من بياضه أن يصبح شفافا ومن وسامة تطيعه أن يتحول إلى صورة من الصور التى نراها على علب الحلوى والملبس . وكان واضحا أنها انتهت توا من استحمامها فشعرها كان قد صفف نصفه ولاتزال قطرات الماء تتساقط من نصفه الآخر .. ومضة

رأيتها بعدها تختفى بحركة غريزية وراء الباب ثم تعود للظهور وقد وضعت فوق رأسها جلبابا أخفى الشعر وحاول فاشلا أن يخفى الوجه ، و لم يتح لى أن أرى أكثر فقد أسقطت رأسى فى الحال فوق صدرى خجلا و لم أرفع عينى عن الأرض، وكدت آمر أذنى ألا تسمع خاصة حين خرج صوت « وردة » مملوءا بزغاريده الخافتة الداخلية يرحب بى ويطلب منى أن أتفضل ، مع أنها لم تكن قد عرفت بعد من أنا ولماذا جئت .

ووجدت نفسى أزداد خجلا وتعثرا وأنا أشرح لها بأقل الكلمات وأسرعها سبب مجيئى ، وتحمر أذناى وتسخنان وأنا أذكر لها الأمارة . و لم يغير ما قلته شيئا من ترحيبها أو لهجتها فمضت بنفس الروح ترحب بى وتطلب منى أن أدخل وأجلس . وحين ترددت وجدتها تجذبنى إلى الداخل بيد بضة لا تزال مبتلة بالماء وتقول :

— خش يا حبيبى .. دا بيتك .. اتفضل اسم الله عليك اسم النبى حارسك .

و لم تترك يدى إلا حين أصبحت فى حجرة داخلية كالمندرة ، وإلا حين أمالت بيدها الأخرى « حصيرة » زاهية النقوش وفرشتها ووضعت فوقها مسندين وأصرت على أن أجلس على أحدهما وأستند إلى الآخر .

و لم أكد أبدا ألتقط أنفاسى حتى كانت عدة الشاى أمامنا والشاى نفسه قد انتهى إعداده ، وحتى كانت تناولنى الكوب بنفس يدها التى بدت حمراء من كثرة بياضها ونعومتها ، ثم تسألنى عن رأيى فيه وتقول إنها راعت أن تجعله خفيفا ليكون « شاى أفندية » يليق بى .

ومع رشفات الشاى الأولى بدأت أفيق ، فحتى ذلك الوقت كانت

مشغوليتها الشديدة فى إكرامى والترحيب بى لم تدع لى فرصة أحدثها فيها عن سبب مجيئى بالتفصيل ، أو حتى أذكر لها شيئا عن كنه علاقتى بزوجها الغريب . وكلما طال الوقت يزداد اهتمامها بى ، وكلما زاد اهتمامها ازددت خجلا واضطرابا حتى بدأت أفكر فى وضع الشاى جانبا وتهيئة نفسى لإعادة الرسالة عليها ولكنى فوجئت بها تقترب منى كثيرا وتقول :

ــ انت مكسوف ليه يا حبيبى .. هو ده مش زى بيتكم واللا احنا مش قد المقام ؟ ما تنكسفش يا خويا اسم النبى حارسك وحاميك ..

وأعقبت كلماتها الأخيرة بهدهدة حنونة علىّ ، هدهــدة كادت تأخذنى معها تحت إبطها ..

وكان لا بد أن ينتهى خجلى ولو للحظة وأرفع بصرى إليها ، إلى تلك التى تعاملنى كصبى صغير أو طالب بينما هى لا تكبرنى إلا بأعوام أقل من أن تعد ، وحتى لو كانت أكبر منى بكثير فهى امرأة وأنا شاب غلظ صوتى وبرزت حنجرتى ، ثم إنها ليست صغيرة فقط ولكنها حلوة بطريقة لا يتصورها العقل ، بيضاء جميلة ملفوفة فى فستانها الحرير المحبوك وكل ما فيها ناضج فائر يكاد يمزق الفستان . وحتى لو كان لها جسد رجل فيكفى ما فى عينيها من سواد جميل يشع رغبات مجنونة تكاد تنطق وتصيح .. ولا تجد فى هذا كله حرجا من الطبطبة علىّ وأخذى تحت إبطها وإدارة وجهى ناحيتها كلما حاولت أن أغض الطرف أو أستدير ، بل لا تجد حرجا فى أن تعزم علىّ بالدخان والمعسل وأى مكيف أريد ، وأحيانا كثيرة تملس على شعرى وتقول :

ـ الله .. شعرك أصفر وحلو زى شعر الانجليـز .. اسم النبـى حارسك يا خويا وصاينك .

وتقول أخويا بطريقة يقشعر لها الجسد بطريقة لا تمت إلى الأخوة بصلة .

وظللت طوال الوقت منبهرا مما أراه وأسمعه ومن إحساسى الدائم أنها مع كل ما تفعله زوجه الغريب ذلك الجبار الرابض ينتظر عودتنا وعلى فخذه الأيسر سكين . ويبلغ انبهارى قمته حين تتعمد بين كل حين وحين أن تخبط على كتفى خبطة دلال وتأنيب وتقول :

ـ اطلع من دول .. دا زمانك مقطع السمكة وديلها ، حاكم البنات تموت فى شعرك ده .. يحميك يا خويا لشبابك اسم الله عليك .. انت مش ح تبات هنا ان شاء الله ؟ والله ما سيبك تروح لوحدك أبدا .

ويتولانى الضيق العظيم ، ضيق الموفد فى مهمة الذى يكتشف أنه هو الذى أصبح موضع الاهتمام وأن كل الرسالة التى يحملها لم يعد لها أهمية بالمرة وسط ازدحام الإكرام الهائل والأسئلة المتوالية عنه وعن شخصه ونفسه والطبطبة والأحضان التى ظاهرها عطف خالص والتى يدوخ التفكير فى باطنها .

ويبلغ الضيق بى أن أقوم أحيانا منتفضا وكأننى سأهم بـالجرى فتحيطنى بذراعيها فورا ، وأحيانا تمس شعرى بقبله يقف لها شعرى وتسألنى فى دلال عما يدفعنى للعجلة ، وبأصبعها المكهربة تتحسس وجهى وذقنى وشاربى المخضر . ويزداد ضيقى وأنا أعامل كاللعبة التى لا رأى لها ولا اعتبار ، وآمر نفسى أن تظل صورة الغريب ماثلة أمام عينى

لا تختفى لحظة تحول بينى وبين هذه المرأة البنداروية التى لا يوقفها خجل أو يمنع يدها حياء . امرأة تبدو كالمحرومة التى ما رأت فى حياتها رجلا .. تراه ماذا يفعل معها ؟ ومن الواضح أنها لا تخافه أبدا ولا تعمل له حسابا قط ..

وربما الضيق والاستنكار وغرابة الموقف هى التى دفعتنى دفعا لأن أجدنفسى أحس فجأة باحتقار هائل لوردة برغم جمالها الهائل وشخصيتها الطاغية المكتسحة .

الغريب بعيد عنها ، والرجال يخافونها خوف الموت ولم يبق لها فى منفاها البعيد عن الرجال إلا تلك الصدفة التى ساقتنى إليها ، من تحسبنى نلك المرأة الداعرة ؟ ومن تحسب نفسها ؟

هكذا بدفعة بغض قوية خلصت نفسى منها وحدجتها بنظرات خلت من كل ما يخجل أو يربك ، وأعدت عليها الرسالة كلمة كلمة وطلبت منها أن تصحبنى . وكأنما صدمها تغيرى فقد وجدت الاضطراب يملأ عينيها فجأة ويدفعها للحركة بلا هدف داخل محجريهما . ولكن ذلك لم يستمر إلا لهنيهة فقد وجدت بريقا ما يعود يشع من نظراتها ، ولم أحتج لذكاء كثير لأدرك أنها فسرت نفورى على أنه فشل لأنوثتها معى وأنها لكى تنجح عليها أن تعيد سن أسلحتها وتمضى فى المعركة . وهكذا جذبتنى ، وهذه المرة كانت أحضانها مكشوفة وإن حرصت على أن تسبقها بقولها :

ــ اسم الله عليك اسم النبى حارسك .

ووجدت نفسى أنا الآخر أبادلها البغض والنفور بطريقة مكشوفة

ويغادر الخجل نظراتى ليغرق نظرتها هى ، حتى ليدفعها لأن تقول :

ـــ هو انا مش عاجباك يا حبيبى ؟

وإلى هنا وجدت نفسى أصرخ وأقول لها :

ـــ أنا مالى ومالك ؟.. أنا باعتنى عم الغريب .. جايه والا مش جايه ؟

ويبدو أنها قرأت فى عينى أن الضيق قد بلغ بى منتهاه ولكنها لم تنسحب من الموقف فورا ، ظلت تحادثنى وكأنما لتختبر إحساسى الأخير تجاهها ولتزيل الجفوة التى حدثت ، وفى النهاية قالت إن علىّ أن أعود للغريب وأخبره أنها لن تستطيع الذهاب إليه . أما لماذا فقد أبت أن تجيب وطلبت منى أن أبلغه ما قالته فقط وبلا أى تعليق ، وبعد فترة قالت :

ـــ وإذا كان عايز هو يشوفنى .. خليه ييجى ..

وكانت تقول هذا وكلانا مدرك أنه مستحيل ، فمجيئه إليها خطر أكيد .

وحين لم أجد فائدة اندفعت خارجا ، ولكنها أمسكتنى واستبقتنى إلى أن حشت جيبى بفطيرة لفتها فى غلاف مجلة وأصرت على أن آخذها . ولا أدرى لماذا حين أخرجتها فى منتصف الطريق وأنا عائد وحاولت أن أقضم منها قضمة جزعت نفسى ووجدتنى أقذفها بكل قوتى فى المصرف ، وأتخيل المشهد الحافل الذى سيدور بينى وبين الغريب .

وكان لقائى معه حزينا لا أدرى لم . كنت أحس من ناحيتى أنى فشلت فى مهمة كلفنى بها وأن علاقتى البسيطة الواضحة به قد حدث فيها شىء عقد من بساطتها ، الغريب الذى ما رأيته إلا كبطل يرى لا يمكن أن يربطه بأرضنا أو بحياتنا رابط فجأة أكتشف أنه زوج ، زوج لوردة وأى وردة!اكتشاف جعلنى أحس بالخجل.. وكأنه كان من واجبى ألاّ أعرف وكأننى ضبطته فى موقف شائن أو لحظة ضعف .

أما الغريب فكل ما فعله حين رآنى أنه قال :

ــ هيه .. ما جاتش ؟

ولأول مرة فى علاقتى به أدرك أنى لكى أجيبه علىّ أن أكذب وكذبت . وحاولت أن أجد لها عذرا وأبرر ولكنه هز رأسه وقال :

ــ طيب .. هيه .. حصل خير .. وحد شافك لما رحت ؟

ومن توهانه عرفت أنه يريد أن يغير الموضوع ليس إلا . وضايقنى أنه لم يثر ولم يغضب وينشب أظافره فى عنقى أو قام من فوره إلى العزبة وانتزعها من مرقدها ونقلها . حتى حين حاولت أنا أن أعود إلى الموضوع وأستنكر موقفها استنكار خفيا لم يظهر عليه الضيق وراح يسألنى عنها وعن صحتها وماذا كانت تفعله بالضبط حين وصلت . أسئلة كان يبذل الجهد لكى تبدو طبيعية كأسئلة أى زوج غائب عن زوجته البعيدة ..

ومع هذا فكل سؤال من أسئلته كان ينبت العرق البارد تحت إبطى مخافة أن يكتشف الكذب فى إجاباتى ، وكنت لا أبدأ التنفس بحرية وأرتاح إلا حين يهز رأسه وينتقل إلى سؤال آخر .

ولكنى لا زلت أذكر رأسه هذا ذا الخمسين عاما حين ارتفع فجأة من فوق صدره وارتفعت معه عينان أخفى ظلام الليل ضيقهما وتفاصيلهما وجعلهما تبدوان كما لو كانتا مجرد دائرتين مظلمتين على جانبى أنفه . لا زلت أذكر ارتفاعة رأسه والوضع الذى اتخذه وهو يصب على صمته ، وكيف طال الصمت حتى بدأت أقلق وأحاول يائسا أن أخترق نظارة الظلام الغامقة الموضوعة فوق عينيه لأفتش عما يريده منى ، حين قال فجأة :

ـــ اسمع يا فندى .

ومنعتنى الرهبة عن أن أستحثه أو أفتح فمى أو حتى أموء فى إصغاء .

كان القمر يطل علينا من بعيد من فوق أشجار الظلام والكافور المحيطة بغيط الميامنة ، وكان مكسورا كأحد « متارد » اللبن التى يضعونها تبركا بعد كسرها فوق قبر سيدى أبو لقان ، وشعاعاته الشاحبة محمرة كضوء لمبة الجاز حين توضع فى الفانوس ويمنع عنها الهواء ، وكان رأس الغريب يواجهنى كبيرا بالنسبة لحجمه ثابتا واجما كأن صاحبه قد مات ، ومن خلال فم لا يكاد ينفرج جاءنى صوته :

ـــ انت بتكدب علىّ يا فندم ؟

ومت .. أقسم أنى أحسست وكأنى أسقط من حافة الدنيا إلى هاوية الآخرة ، السقطة توقف القلب وتشل العقل وتجمد الأطراف ويدفع ،

جلودنا لأن تفرز فزعها على هيئة عرق صغير ينبت .. عرق الرعب .
وحاولت التشبث بالهواء وقلت :

— ليه ؟

ومرة أخرى جاءنى صوته وكأنه صوت الظلام إذا تكلم الظلام :

— بتكذب علّى ليه يا افندى ؟

وابتلعت ريقى بصوت حاولت كتمه ، وقبل أن أبتلعه مرة أخرى قال :

— انت عملت حاجه مع ورده ؟

ويبدو أنه لمحنى أعتدل فى مكانى ملسوعا فوجدته يستطرد معدلا السؤال :

— والا هى لعبت عليك يا افندى ؟

وفى جزء من الثانية كنت قد وطنت نفسى على أن أنهار أمامه وأقول له كل شىء ، وإذا نفذت بجلدى أقطع صلتى به وبوردة وبتلك المشاكل التى لست ندا لها والتى ورطت نفسى فيها بصبيانية قد تضيع حياتى . ولكنى فى الجزء التالى من الثانية كدت أفقد وعيى بتأثير دفقة الحياة القوية التى عادت إلى مع أغرب وآخر ما كنت أتوقعه .. ضحكة عالية ضخمة صدرت عن الغريب وبددت عن الليل ظلامه وانتزعت عقلى من مكانه ، ضحكة .. ويد قصيرة قوية امتدت تطبطب على كتفى ، وصوت آخر كصوت النور إذا تكلم النور يأتينى من ملامح بدأت تتحرك وتنفعل وتعود إليها الحياة :

— انت خفت يا افندى ؟.. الله يجازى شيطانك .. قول لى بقى ..

ورده عملت معاك إيه ؟

* * *

وأنى لى أن أعرف أن الغريب يعرف عن زوجته الجديدة وردة كل شىء ، وأنها نقاوة عينه التى أخذها على عيوبها وأنه رآها تغنى فى الأفراح مع الفرقة فأعجبته وعشقها وتزوجها بما يشبه القوة ، وأنه يضعها فى العزبة النائية كالطائر فى قفص مفتوح يتحدى الرجال بها ويتحداها وتتحداه ، وأن العلاقة بينهما — على رأى عم خليل الذى شرح لى كل شىء — كالعلاقة بين الجنى المارد والمرأة فى ألف ليلة يضعها فى قمقم مفتاحه معه ، وتحتفظ هى بصرة فيها خواتم من خانته معهم رغم كل قمقمه وأقفاله وجبروته . غير أن وردة لم يكن لديها صرة خواتم ، وواضح أن الغريب أقوى أثرا من الجنى المارد وأكثر حبا ، فهو يقتر على نفسه وزوجاته وأولاده ويصرف عليها ويعفيها من أن تخلص له أو تتصرف بشرف ، ويقول لها :

— إذا استطعت أن تفعلى شيئا فحلال لك أن تفعليه .

وربما يقول هذا عجزا ، وليبرر لنفسه خطأها إذا أخطأت ، ونار الشك تأكل قلبه وعذابه لا ينتهى ، والسؤال المضنى يلح عليه : « تراها استطاعت وأخطأت أم لا تزال عاجزة ؟ ».

ولايزال اسمه المرعب يحول بينها وبين الخطيئة .. وكلما ازداد شكه فيها وازداد شكا فى نفسه اندفع يثبت لنفسه وللناس أنه قادر جبار ، واندفع يضرب ويبطش ويبسط نفوذه على الجيرة وجيرة الجيرة ويجعل من اسمه — من الغريب — القمقم الرهيب الذى يحول بينها وبين الرجال

ويحول بين الرجال وبينها . من أين لى أن أعرف أن الغريب اختارنى بالذات ليرسلنى لوردة لا لشىء إلا لأكون كالطعم الحى يمتحن له حالتها ويتحداها بى ، وليريها أنه وهو بعيد قادر على أن يشل إرادتى أنا ويضحك عليها بى ؟ ومن أين لى أن أعرف أن وردة كانت تعلم أنى آجلا أو عاجلا سأنهار وأحكى للغريب كل شىء ، وأنها فعلت كل ما فعلته معى وهى متأكدة أن الغريب سيعرفه ؟.. فعلته تحديا وردا على تحديه ؟ أنى لى أن أعرف أنى كنت كالرسالة الحية المتنقلة التى أرسلها الغريب يسألها فيها عن أحوالها ومبلغ خضوعها له ، وأنها أرسلت إليه الرد مكتوبا على نفس الرسالة — على أنا — ردها المعتاد المملوء بتحديه وثورتها عليه ؟ أنى لى أن أعرف أن الغريب اختارنى ليثبت لوردة أن نفوذه علىّ أشد أثرا من كل أنوثتها وجمالها ، وأنها أرادت بما فعلته أن تثبت العكس ؟

أنى لى أن أعرف هذا كله ؟

* * *

أما ليلتها فكل ما فعله الغريب وأنا أحكى له ما حدث أنه استمع إلى وهو يضحك ، ضحكات لا شخشخة فى آخرها كضحكات صبى مراهق سعيد بنفسه ورجولته .

وسألنى حين انتهيت بقليل من الجد :

— طيب يا فندى دى لو كنت مراتك وعملت كده كنت تعمل فيها إيه :

قلت بغضب حقيقى :

— كنت قتلتها من زمان .

فقال :

— كدهه .. هو القتل بالساهل كده ؟

قلت بدهشة :

— بالنسبة لك على الأقل لازم يكون حاجه سهله .

فقال وهو يعود يخفض رأسه :

— قتل الناس حاجة وقتل مراتك حاجة تانية .. مين عارف .. بيتهيأ لى ان كل واحد تلاقيه بيفكر ساعات يقتل مراته .. بس العيب انه ما بيرسيش على رأى .. ساعة تقول خلاص معدش فيها أمل يالله أدبحها .. وساعة تقول يا واد يمكن تصلح .. وتفضل متردد بين كده وكده لغاية آخر يوم من عمرك .. لو كان الواحد بيرسى على رأى كان كل واحد زمانه قتل مراته من زمان ..

ولم أفهم ما يريده بالضبط ، كل ما فهمته أنه يريد مراوغتى وأنها ليست طريقته ، وأنى لأول مرة أراه يتساهل فى أمر خاص به ، فقلت :

— كان بيتهيأ لى انك مش كده .

فقال بنصف ارتفاعة من رأسه ، وبصوت حائر بين الجد والهزل :

— بكره تكبر ، وتعرف ، وتقدر ..

وعاد رأسه إلى الانخفاض ، وأحسست به هذه المرة مدلدلا ورقبته كالعلم الحائر المنكس ، وكدت أشفق عليه وأضيق به وبالجلسة وأقوم واقفا لأروح ، لولا أنه فجأة شب من جلسته كالملسوع وكأنما استطالت أذناه وارتفعتا إلى فوق كأذنى كلب أحس بالخطر ، ثم وجدته يقول فى صوت يلهث بغير جرى :

ـــ خذ توبك فى سنانك وطير .. وأوع تبطل جرى الا اما تحصل الدار .

— ١٠ —

وبينما كنت أقضى ليلة محمومة أتقلب فيها على لذع اضطراب غير مرئى أتساءل عما دعاه لأن يأمرنى بالجرى ، وأحيانا أعود إلى الحديث الذى دار بيننا وأحاول أن أوافق بين صورة الغريب كما تصورته والغريب كما وجدته ، الغريب القادر والغريب العاجز ، الغريب الذى يخيف الدنيا والغريب الذى لا تخافه ورده أولى الناس بالخوف منه ، بينما كنت فى هذا كان الغريب يقضى ليلة من أتعس لياليه كما علمت فى اليوم التالى .. فقد كان إحساسه مضبوطا ، وكانت داورية مكبرة على رأسها المأمور بنفسه قد خرجت للبحث عنه وفى حقول الأذرة بالذات ، ولو طال كلامنا قليلا ، أو لو كان سمعه أقل حدة لأطبقوا علينا .

وفى الليلة التالية ذهبت إلى الغريب ومعى البطيخة التى كان قد ذكر أن نفسه فيها وشققتها لتبرد وجلست أنتظر ، وطال انتظارى دون أن يظهر . وأخيرا قنعت من الغنيمة بالتهام ما استطعته من البطيخة ودفن الباقى فى الأرض ، ثم عدت وأنا حائر أأفرح لانقطاع الخيط الذى كان يربطنى به أم أحزن . كانت معرفتى به على الرغم من قصرها قد أشبعت قليلا من نهمى لمعرفته ، ولكنها ـــ وهذا هو المهم ـــ لم تكن قد حققت

الشيء الوحيد الذى أردتها أن تحققه ، إذ لم يعلمنى الغريب القتل كما حلمت بل كدت أومن أنه هو نفسه لا يعرف كيف يقتل .

وانقضت أيام قليلة ، ربما يومان ربما ثلاثة قبل أن أصحو ذات ليلة على طلقة مكتومة صكت الحائط المجاور لفراشي . انتبهت من نومى تماما وأصخت السمع هنيهة وإذا بطلقة واضحة ثانية تأتى على هيئة حصاة صغيرة تأكدت أنها قد قذفت عن عمد لتصيب نافذتى دون سواها وتنادينى . وتساءلت من تراه يكون فالغريب لا يعرف بيتنا على وجه التحديد ، وحتى إن عرفه فكيف يعرف حجرتى والنافذة التى أنام بجوارها . اعتدلت برأس أفرغه الاضطراب الشديد من كل محتوياته فغدا كالصندوق الفاضى الذى يرن لأقل حركة أو خاطر ، وفتحت النافذة باحتراس ، ومن شبه الظلام المخيم خارج البيت سمعت كلمة آمرة هامسة واحدة :

— انزل .

ثم أعقبتها أخرى :

— وهات الطليانى .

كلمات لمع فى الظلام فحيحها الهامس كنصل صوتى حاد ثم اختفى ، وكاد كل شيء فى الخارج يعود إلى السكون المظلم الذى كانه لولا أنى لمحت أكثر البقعات سكونا وظلاما تتحرك وتتشكل على هيئة شبح ، ثم تمشى آخذة طريقها إلى الغيطان .

والواقع طغت فرحتى على كل شيء . على اضطرابى وإشفاقى أن يكون ما حدث قد أيقظ أحدا من أهل بيتنا ، خاصة أبى ذلك الذى ،

يستيقظ لأقل همسة . وكانت الفرحة لا تزال تعصف بى وأنا أتحسس طريقى إلى العشة الكائنة أسفل برج الحمام حيث أخفيت المدفع الإيطالى الصغير الذى أعطانيه الغريب . كنت خلال الأيام القليلة التى انقطعت فيها صلتى بالغريب قد بدأت أعود إلى حياتى التافهة الخالية من الأسرار والليل والأحداث ، وما أعظم ما بدا الفارق .. وما أكثر ما جبت الأذرة لعل الخيط يعود مرة أخرى ويصلنى به ، وها هو ذا قد عاد بنفسه وبصورة ألهبت خيالى ..

طغت فرحتى على كل شىء ، وفى غمضة عين كنت أقف أمامه حيث تعودنا أن نلتقى ، ألهث وأحدثه عن البطيخة وأناوله المدفع وأضع الظروف أمامه فى الخزانة الفارغة كما علمنى .. وحين سيطرت على انفعالاتى وبدأت أنظر إليه أدركت مشدوها أنى أمام غريب آخر ، أمام إنسان قد انعدمت كلماته و لم نفسه وتجمعت شخصيته فى بذرة إرادية واحدة ، وكان فى سحنته شىء لم أره من قبل .. حماس ربما جنون ، روح جديدة تلبسته ، شىء أسكت ثرثرتى مرة واحدة فأرغمنى على أن آخذ دور الجندى الذى ينتظر أوامر قائده ويدرك أنها أوامر خطيرة بالتأكيد لها ما بعدها .

وبالفعل صح ما توقعته ، فقد وجدته بلهجة حامية سريعة وخطيرة :

— تروَّح والا تيجى معايا ؟؟

قلت بسرعة :

— آجى معاك .. بس على فين ؟؟

— ما تسألش .. يمكن نقتل .. يمكن ننقتل .. تيجى معايا ؟.

قال هذا ودون أن ينتظر إجابتى فرق بيديه عيدان الأذرة ونفذ بجسده القصر بينها .

وكنت بعد ثانية تردد أتبعه .

— ١١ —

ولم أحاول مرة أن أجره للحديث أو أسأله ، كان يبدو كالمقاد إلى هدف قوى بعيد يجذبه ويعشيه ولا يدع له وقتا للكلام أو الوقوف ، ويخطى بى كبارى ويلف حول خلجان ويزحف على يديه فى بطون أحواض وكأنما هو لا يرانى أو يسمعنى أو يحس أصلا بوجودى . فى الأحيان النادرة التى تكلم كان يقول :

— إيه .. هيه .. بتقول إيه ؟؟

فإذا حاولت استيضاحه أجابنى بغمغمة أدرك معها أنه مستغرق فى تفكير من العبث أن أحاول استخراجه منه. كان الليل هائلا كبيرا كخيمة مأتم كللت بالسواد حدادا على وفاة النهار ، وليس فيها سوى أنوار قمر شاحب ونجوم أضيئت لتهدى المعزين . وكانت الغيطان واسعة ممتدة أوسع من غيطان النهار ... نترك حقول القمح المحصود لندخل حقول الأذرة ونخرم وسط أقطان ونرقب خيالاتنا المعتمة فى الأرض الغارقة بالماء تنتظر زراعة الأرز . أرض كثيرة شاسعة وممتدة ، كل شبر منها مزروع ومعتنى به وعرق من أجله هؤلاء الغلابى الراقدون فى بيوتهم ،

وكأنما ناموا من الحزن ، يتقلبون فى انتظار أن يأتى النهار ويغترفهم بقبضته ثم بكل عزمه يبذرهم ليفرش بهم وجه الأرض فيقلبوا سوادها خضرة وخرابها عمارا وطميها خبزا .. إلى أن يجىء الليل وبمنجله يحصدهم وبأسراره وخفاياه يخزنهم فى صوامعهم الآدمية المصنوعة هى الأخرى من الطين . ما كان أبعدنا عن أولئك الذين يبذرهم النهار ويحصدهم الليل وتنبتهم الأرض ليعودوا ينبتونها ، ما كان أبعدنا عنهم وهم نائمون ، بعيدين ينعمون بطاعتهم الشاملة للكون وأرضه ونهاره وليله ، ما كان أبعدنا ونحن نخترق عالمهم وجهدهم فى استخدامه وتجميله ، الغريب أمامى قصير صغير اليد قوى الذراع .. الذى ناضل حتى أفلت من قبضة النهار ومنجل الليل ، ويريد أن يخضع الكون لنواميسه وليكون له على الناس سلطان الكون ونواميسه فيخشونه كما يخشون الله والآخرة وبرد طوبة ، وأنا وراءه أتأمل حجمه الصغير حتى المدفع المعلق فى كتفه ، وأتأمل حجم الليل الكبير وأجده أحيانا أضأل كثيرا من أن يملك زمام الليل ويصبح سلطانه .

ولكنا لم نكن وحدنا .. كان يحدث أن أسمع الغريب يغمغم بخفوت ثم يقول :

— دستوركم يا رجاله .

وأتفرس حينئذ فيما حولى وبالكاد ألاحظ رجلين أو بضعة رجال قد انتحوا من الليل ركنا تحت كوبرى أو فى مدار ساقية ، لا تدرى لأى شىء هم جالسون ينتظرون ، ولا لأى هدف يتحدثون فى صمت ويتشاورون ، ولا ما الذى جعلهم يتركون هم الآخرين مضاجعهم

ويسهرون فى تلك البقع المخيفة ورغم هذا الليل الشامل البهيم ؟ ولكنى كنت أهز رأسى وأقشعر وأقول هم أولاد الليل الحريصون على تقاليد الليل حرص الغريب ، والذين حين يحييهم تحيته تلك يأمنون ويؤمنونه ، وكأنما ألقى عليهم كلمة السر ويردون عليه قائلين :

— دستورك معاك .

وفيهم أيضا كرم الفلاحين فما أكثر ما كانوا يردفون :

— اتفضل .

وما أكثر ما كنت أفرح وأنتشى حين يلحظون وجودى ويقولون :

— دستوركم معاكم ، اتفضلوا يا رجالة .

شيئا فشيئا وبعد توغل طويل فى الليل وغوص أكثر فى ظلامه ولقاء لأبنائه بدأت أرى الغريب بعين جديدة ، بدأت أراه بعين الليل الذى نحن فيه فأحس أنه مع الليل أكثر انسجاما وكأن كلا منهما جزء متمم للآخر .. حتى ليستحيل على المرء أن يتصور الليل بغير الغريب والغرباء زملائه ، أو يتصور الغرباء بلا ليل يحجبهم ويسترهم ويحيون فى كنفه .. هؤلاء الهاربون من أبوة النهار الواضحة إلى أبوة الليل الخفية ، هؤلاء الذين يجذبهم الليل بكل وضوحه وقانونيته ، من يراهم ويرى ألفتهم مع الليل وترويضهم لوحوشه يخيل إليه أنه من المستحيل أن ينتهى أمرهم حتى ولو ملأ العمران كل الأرض ، سيظل هناك أولاد ليل ما دام هناك ليل وما دام لليل سحره وجاذبيته التى لا تقاوم ، فما ذنبهم ؟ الليل هو الذى يجذبهم ويخلقهم وينتزعهم من النهار ، وسيظل الليل يخلقهم ما وجد هناك ليل وما ظل الماء يخلق السمك والصحراء تخلق الرعاة والغربة تخلق الحنين .

منذ الأزل كان هناك الغرباء وإلى الأزل سيظلون . ومنذ الأزل وأشد العقاب ينزل بهم ويهلكهم ورغم العقاب يعودون يوجدون . فكلما فقد الليل غريبا جذب من أهل النهار آخر .. ربما لكى تظل الدائرة تدور ولكى يظل هناك أهل ليل وأهل نهار ، ولكى يظل أهل النهار هم الكثرة وأهل الليل قلة ، أو حتى ربما لنظل من أهل الليل أو النهار عن طواعية واختيار .

حين أوقفنى الغريب بذراعه وواجهته وراح يتفرس فىّ . تساءلت بينى وبين نفسى ما الذى يمنع رجلا كهذا أن يقتلنى والبقعة نائية ، ولن يشهد فعلته أحد سوى الليل الذى لا يرى ولا يسمع ولا يفتن ؟ والحجة موجودة — حكاية وردة — بل حتى بلا حجة ، ما الذى يمنعه من قتلى إلا أنه يعرفنى ؟ الآن بينى وبينه صلة هى التى تجعلنى أحس بالأمان ؟ من يدرى ؟ ربما لو عرف الناس بعضهم بعضا معرفة وثيقة ما جرؤ أحد على قتل أحد .. ما خاف أحد من أحد . كنت أفكر فى هذا حين سألنى الغريب بصوت أجش قد خشنه الصمت الطويل وبله الندى :

— انت خايف ؟

قلت على الفور :

— لا .

قال :

— مستعد لأى حاجه ؟

قلت على الفور أيضا :

— أى حاجه إيه .

ولم يجبْ .. تأملنى مرة أخرى وقال :

— شايف النار دى ؟

ولم أكن قد رأيت نارا ولكنى حين تلفت وجدت قبضة بعيدة كالجمرة تحسبها عين ذئب وحيد العين .

— عارف مين هناك ؟

— مين ؟

— شلبى .

— شلبى مين ؟

— صاحبى وحبيبى — أنا جاى اقابله أصلى ما شفتوش من زمان ونفسى هفتنى عليه .

وشرح لى الغريب المطلوب منى . قال إنه يريد أن يخيف شلبى والرجل الجالس معه أمام النار يشويان الأذرة وتملأ رائحتها الجو .. كان علىَّ آخذ المدفع معى وأمشى باحتراس حتى أصل منهما ثم أخرج عليهما فجأة وأقول :

— بتعمل ايه يا ابن الكلب انت وهوه ؟..

وعلى أن أطمئن فسرعان ما سيظهر هو ونضحك جميعا على ما حدث ونجلس معهم ونشوى الذرة ونأكلها ..

وفى الحقيقة ظل قلبى يخفق وكأننى ذاهب إلى حتفى والمدفع يرتجف فى يدى حتى اضطررت لإمساكه بيدى الاثنتين وأضغطه فى كتفى ، وببطء شديد رحت أتقدم ، وخيل إلى أن وقتا طويلا قد مضى قبل أن تصبح المسافة بينى وبينهما كافية لأن أراهما وأرى وجهيهما . كانا اثنين

أحدهما شاب وسيم يرتدى طاقية صوف مُعوَّجة فى عياقة على رأسه ، والآخر كان واضحا أنه خفير نظامى فقد كانت بندقيته راقدة بطولها على ساقيه المتربعتين ، وهو مشغول بالهف على النار وتقليب الكيزان ، بينما الأول جالس وقد أحاط ساقيه بيديه وعلى وجهه علامات تفكير .

ولولا خوفى من الغريب لضربت فوقهما طلقة فى الهواء ، فقد كان المدفع معبأ فى يدى يغرى بالإطلاق .. وإطلاق الرصاص من بعيد أسهل بكثير من أن أواجههما .

ظللت أتردد وأرتجف حتى رأيت شبح الغريب يطل من باب الحظيرة خلفهما .. وحينئذ فقط — وكأنما أصدر لى أمرا غير مسموع ، وجدت نفسى أنطلق فجأة كالثور الهائج أصرخ وأدب بأقدامى وأخترق المسافة الكائنة بينى وبينهما فى قفزات واسعة ألقتنى فى لمحة البصر أمامهما لا يفصلنى عنهما إلا النار المحمرة الخافتة ، والمدفع فى يدى أصوبه بحماس بالغ مضحك .. ولكن الحيلة نجحت بأكثر مما توقعت فقد ارتدا إلى الخلف فى جزع حقيقى ، بل اندفع الخفير يصرخ وكأنما فقد عقله .. غير أن هذا كله استغرق .. لم يستغرق فى الحقيقة أى زمن وكأنه لم يحدث بالمرة .. إذ فى نفس الوقت تقريبا كان شىء آخر يحدث .. أفظع وأبشع شىء شاهدته أو سأشاهده فى حياتى ..

والكارثة التى لا خلاص منها أنى شاهدته بعينى هاتين .. رأيته ولم يكن أمامى إلا أن أراه .. إلى هذه اللحظة بإمكانى أن أتذكر الغريب وهو يتقدم ليصبح خلفهما مباشرة ، وبإمكانى أيضا أن أتذكر يديه حين ارتفعتا عاليا فوق رأسه ، ولكنى لا أذكر أبدا أنى رأيتهما تهويان . كل

ما أذكره هو ذلك الصوت الذى لم أسمعه قبلا والذى لا يشبه أى صوت من أصوات الوجود الأخرى ، صوت كصوت كسر البيضة بالبيضة إذا كانت البيضة فى حجم الرأس .. كصوت الحديد المحمى حين يطش إذا وضع فى الماء .. ما أذكره هو .. طس .. وإذا بالشاب العايق يقوم نصف قومة ولكنه لا يعود للجلوس ، ترتفع ساق من ساقيه فى الهواء ثم تبدأ تهبط على دفعات متقاربة وكأنها عقرب ساعة نطاط ، وكذلك راح رأسه يهبط .. ولكنه لم يكن نفس رأسه ، كأن قد تحول إلى كتلة وقسم إلى قسمين بينهما شىء لامع أسود تنخلع قلوب أكثر الرجال شجاعة إذ عرف أنها بلطة قد غورت فى الرأس ووصلت خلال إحدى العينين إلى الوجنة ..

— ١٢ —

لم تستغرق العملية كلها سوى ثوان ولكنها أخذت من عمرى سنين أستعيدها وأتأملها ، وفى كل مرة تخاطبنى نفس الأحاسيس وأرتجف تحت وقع القشعريرة نفسه وأدوخ كما لو كنت أنا الذى شطرت البلطة رأسه ..

ترى ، أية قوة خفية تجعلنا نتألم إذا رأينا الغير يتألم ؟ وتكاد نموت إذا رأيناه يموت ؟ الشاب لم أكن أعرفه أو لى به صلة ، ومع هذا فقد ظل مصرعه يطاردنى ويعذبنى .. وكأنى أنا القتيل ، بل كان يصل عذابى إلى

درجة أكبر .. وكأنى أنا القاتل !

وإذا كنت قد روعت مرة لما حدث للشاب ليلتها فروعى كان أكبر للدقائق القليلة التى أعقبت موته ، وبالذات لرؤية وجه الغريب .. وجهه حين انتزع البلطة من مكانها الموغل فى عمقه وبشاعته ووقف يلهث ويستند إليها.. ويقلب نظره بينى وبين الخفير الذى كان قد تمدد على الأرض لا نعرف إن كان إغماء أو رعبا أماته وأوقف قلبه .. ياله من وجه ! ... ويالبصابيص النار حين أضاءته وجسدت خلجاته وجعلت قشعريرتى تتحول إلى رجفة مسموعة لا يمكن إيقافها ...

عيناه .. عيناه الضيقتان ما رأيتهما أبدا بهذا الاتساع ، بل ما اعتقدت أبدا أن أى عين بشرية يمكن أن تتسع وتستدير وتصل إلى ما وصلت إليه عين الغريب .. لو كان الغريب هو المقتول لما أوصل الرعب عينيه إلى هذه الدرجة من الاتساع ، ولما حدث لوجهه كل ما كان يعانيه من شحوب .. وكأنما الضربة التى فلق بها رأس الرجل قد فتحت بابا سريا خرج له منه مارد أو جنى ووقف قبالته يمسك هو الآخر بلطة ويهم بتصويبها إلى أم رأسه .. لا بد أنه كان يرى فعلا شيئا كهذا وإلا لماذا كان يسيطر عليه كل ما كان مرتسما فى عينيه ونظراته الزائغة من رعب ؟.

ولا بد أنه كان فى تلك اللحظة بالذات فاقد الإحساس بنفسه وبما يفعله ، فقد كان يدير رأسه وينقل البلطة من مكان لمكان ويلف ويدور ويفعل هذا بحركة شيطانية سريعة ما عهدتها فيه وليست من خصائصه ، وكأنه قد أصبح غريبا آخر غير الغريب الذى صاحبنى فى رحلة الليل ، أقسم أنه

كان غريبا آخر .. غريبا لم أستبعد أن يرشق بلطته فى رأسى بلا سبب ، أو يرفعها ثم يهوى بها على الخفير الممدد فيقسمه نصفين .. كان واضحا أن باستطاعته أن يفعل أى شيء وهو فى حالته تلك التى لا يدرى فيها بما يفعله ، بل كان واضحا أنه وصل إلى درجة لا يمكن إيقافه عندها وإنما عليه أن يستمر يبطش ويقتل ويكسر الرءوس ، وكأنما ليدافع عن نفسه ضد هذا الشيء الخارق المهول الذى كان منتصبا أمامه يخيفه ويرعبه ويفقده من الرعب والخوف عقله ..

وباستطاعتى أن أقول إننى والخفير قد نفذنا من تحت بلطته ليلتها بمعجزة . لقد كاد يدفعنى وعيى لأن أضغط على زناد المدفع كما علمنى ولا أتركه حتى يفرغ فى جسده كل رصاصه .. كنا أربعة كائنات حية تسيطر عليها أقصى درجات الرعب .. رعب القاتل لا يقل عن رعب القتيل .. ورعب الخفير الفاقد الوعى من الرعب لا يقل عن رعب الغريب .. ورعب القاتل المحترف لا يقل عن رعب الصبى الخام المغامر ، وكلنا فى حالة دفاع عن النفس .. أنا مستميت على المدفع والغريب مستميت على البلطة .. مستميت فى البحث كالمجنون عن الشبح الذى يرعبه .. والخفير متشبث بإغمائه يحتمى به ولا يريد أن يفيق ، ولو خير القتيل نفسه لاستمات على ميتته مفضلا ألف مرة أن يموت مرة ولا يعود للحياة ليواجه ميتة البلطة مرة أخرى .. وحتى النار الموقدة كانت تقاوم الفناء بإحراق كيزان الأذرة وشيها .. والكيزان تقاوم النار ويدفعها الرعب عن المصير المحتوم لأن تئز وتشكشك وتفرقع حباتها أحيانا وكأنها تستصرخ النار بآخر رمق وتطلب النجدة .. رعب كامل من الموت

وتشبث كامل بالدفاع عن النفس فى وسط ليل قد اشتدت ظلمته فى محاولة أخيرة للوقوف أمام النهار الطالع ، والشاهد الوحيد المحايد قمر أفطس الأنف مخنوق كالمشفق علينا مما نخوضه .. كالحزين على المصير ..

حتى بدأنا نشم رائحة لحم آدمى مشوى تختلط برائحة الذرة المشوية وتملأ المكان ..

* * *

وفجأة ، بدأنا نتحرك ..

وبدأت الحركة بضربة من قدم الغريب أعادت الخفير إلى صوابه وأوقفته .. وتعاون الرجلان على حمل القتيل وإطفاء النار التى كانت قد بدأت تسرى فى لحم ذراعه وملابسه .. وحملت أنا المدفع والبلطة وسارا أمامى بحملهما .. ولم نذهب بعيدا فبعد بضعة أمتار وصلنا إلى ساقية مهجورة .. واحدة من تلك السواقى التى كانت تستعمل لاستخراج الماء من جوف الأرض حين يشح ماء النيل والتى بطل استعمالها من زمن ونبتت حولها الحشائش وأصبح ماؤها آسنا له لون الزيت المعدنى ورائحته لتبدأ تدخل فى حوزة الليل وأبنائه ، تؤخذ عندها المواعيد وتخفى فى مياهها المسروقات ، وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف أنها تستخدم أيضا كمقبرة لمن لا يستحب أن تحويهم المقابر .. مقبرة تلقى فيها الجثة بعد ربطها بحجر .. وتتكفل مياهها بالتهام لحمها وعظامها وما ترتديه فى أيام !

وعدنا فى موكب صامت ، أنا فى المقدمة والخفير وسطنا والغريب فى المؤخرة .. وقد انتقلت إليه البلطة والمدفع . وسرعان ما اختفى الخفير

بعد أن تبادل معه الغريب همسات وأكملنا السير وحدنا ..

وظللنا فترة لا نتحدث ، وكان الغريب أول من نطق ، وبدأ كلامه بنبرة عادية وبلهجة حاول فيها أن يعتذر عن اضطراره لإشراكى فى تلك اللعبة الخطرة ، فقد كان لا بد له من قتل شلبى .. ولم يكن أمامه من يستعين به سواى ..

وبكلمات أخرى قليلة حكى لى قصته مع شلبى الذى لم يكن مجرد مساعد له أو عضو فى عصابته ولكنه كان صديقه وأخلص خلصائه ، صداقة بدأت بخناقة فى سوق الأربعاء .. واستمرت عشر سنوات ، ووصلت إلى حد أن سلم له الغريب نفسه واسمه وماله وهو مؤمن أنه يسلمها لصديق .. صديق لم يشك فى إخلاصه حتى ذلك اليوم الذى واعده فيه على اللقاء عند نفس الساقية التى تركناه فيها من هنيهة . والتى وجد نفسه بعدها محاصرا بخمسين بندقية ميرى وبمسدس الضباط فوق رأسه ، لم يداخله الشك ساعتها بل حتى لم يشك حين أخذوه هو فى « البوكس » وتركوا شلبى .. أنى له أن يعرف أن الحسد كان يأكل قلبه طوال هذه السنين ، وأنه ظل يدبر الخلاص منه ليستولى على العصابة ، وعلى ما هو أهم من العصابة .. على ورده .. وأنه هو الذى اتصل بالمأمور ودبر معه الخطة ؟.

لم يكن الغريب يحكيها كحكاية .. كان كأنما ينزف أو يتألم .. وفى أحيان كان يسكت ثم يقول فجأة وهو يطحن أسنانه بأسنانه : دا الطاقية اللى كان لا بسها ليلة الساقية طاقيتى ، اشتريتها باتنين جنيه من واحد عرباوى وعجبته فحلفت أن يأخذها ..

ويضحك فجأة ويقول :

ـــ انت عايز الحق .. الحق مش هو اللى غلطان . أنى الغلطان .. بقى عايز فى صنعة اللى بيشتغلوا لصوص وقتالين قتلة تتوجد خلصانية والا صداقة ؟ مفيش كلام من ده .. فى الليل كل واحد ونفسه .. واللى يسلم دقنه لغيره ما يلومشى على اللى يصح له .

ثم يلتفت إلىّ مرة ويحكى لى كيف دبر مقتل شلبى بنفس الطريقة التى دبر بها شلبى تسليمه .. وفى نفس المكان تقريبا .. وبنفس السلاح .. الصداقة والإخلاص .. فالخفير خفير العزبة التى فيها وردة ، وقد اندفع شلبى لصداقته والإغداق عليه ليتركه يحوم حول وردة ويدبر معه أمر خطفها . تلك الليلة بالذات كانت موعد الاختطاف ، وكان شلبى والخفير جالسين ينتظران مقدم رجلين آخرين من العصابة ومعهما المطايا لتنفيذ الخطة . والشيء الذى لم يعرفه شلبى أبدا أن الخفير باع سره للغريب .. والشيء الذى لم يعرفه الخفير أبدا أن الأمر سيحسم بالبلطة ..

وبينما الغريب يتكلم وأنا مندمج أسمع كلامه كان خاطر يلح على إلحاح الناموسة : ترى ماذا يقول أبى الذى لا يفوته الفرض لو تكشف له الغيب للحظة وعرف ما أفعله ساعتها ، وما شاهدته ، والرجل الذى أسير خلفه ، وبحديثه أغوص فى ذلك العالم الشاذ الغريب وألم بتفاصيل أتفهها يخلع القلب ويوقف الشعر ؟..

وربما إلحاح الخاطر هو الذى شغلنى عن أن أدرك أننا كنا طوال الوقت قريبين من عزبة وردة وأننا قد أصبحنا على أبوابها .

وربما هو أيضا الذى صرف أنظارى عن الغريب بحيث لم أفطن إليه إلا وقد جلس وجذبنى من جلبابى وقال :

ــ بص كده مش ده دم ؟

وحين أمعنت النظر كانت يده بالفعل تقطر دما ، وكلما تحسس فخذه وأخرجها تكاثر الدم ، وحين عراها ظهر الجرح .. جرح بشع متهتك وكأن شيطانا مسعورا قد نهش فخذه .

إحدى ضربات البلطة لا بد قد أفلتت وأصابته وهو يخلص على شلبى ..

— ١٣ —

وعولج الجرح طبعا .. قام بعلاجه الدكتور معروف الذى أخذ الطب بالممارسة .. والذى كان يعمل حلاق صحة اسما .. بينما شهرته كطبيب ملء الأسماع ، حتى كانوا يقولون إن يده النحيفة المعروقة التى تشبه فى ليونتها ورقتها أيدى النساء أنجع من أيدى عشرات الأطباء الحقيقيين .

.. وقصة علاجه نفسها ودورى فيه قصة طويلة تصلح وحدها رواية ، يكفى أن أقول إنها تمت تحت الكوبرى المتحرك حيث كان الغريب قد قرر أن يقيم إلى أن تشفى ساقه .. ولم أكن أتصور أن تحت الكوبرى سيكون بهذا الأمان والاتساع .. وأن بإمكان الإنسان أن يعيش شهورا تحته دون أن يدرك المار فوق الكوبرى من أمره شيئا .. لم

أكن أعتقد أن الأمر سينقلب إلى متعة وتجربة جديدة مثيرة يحياها الإنسان وهو منحن كأنه يحمل الكوبرى فوق كتفيه ، ويحس بمشاعر غريبة والماء يجرى بجواره وتحت هذا الارتفاع المنخفض ، والأصوات ترن فى مزيج من صدى الأرض والحديد ورخامة الماء .. أيام كثيرة قضيتها أحيا مع الغريب تحت الكوبرى وقد انقطعت صلتى بالعالم وبدنياى وعائلتى ، وكأن لم تكن لى فى يوم من الأيام حياة أخرى غير تلك.. انقطعت هكذا من تلقاء نفسها .. ودون أى قرار منى أو نية .. وقد أصبح شفاء الغريب هو كل ما أحفل له وأحيا من أجله .. وما أعمق الصلة التى نشأت بينى وبينه فى تلك الفترة وأنا أراه عن قرب ضعيفا قويا ، عملاقا ومتألما ، نادر الكلام وصاحب حكمة .. ما أكثر ما فى صدره من أسرار وما أقل ما يفضفض بها !..

ولكنى لا زال أذكر من حادثة علاجه لحظة لا يمكن أن أنساها ، تلك التى كان يتهيأ فيها الدكتور معروف لإعطائه حقنة المخدر الموضعى حين بدأ وجه الغريب يشحب أمام عينى وعرقه ينبت وعيناه تتسعان ونظراته تروغ ..

تساءلت لحظتها لم كل هذا ؟ حسبته أول الأمر من مضاعفات الجرح .. ولكن معروف حين سأله :

ــ انت خايف والا إيه ؟

ونفى الغريب بسرعة وبشدة أدركت ما لم أكن على استعداد لتصديقه أبدا . أن الغريب الهائل المهول بكل هيلمانه وجبروته خائف كأى طفل من الحقنة ، أكثر من هذا حين هم معروف بغرز الإبرة فى جلده وجدته

يستمهله ثم يشخط فيه ويأمره أن ينتظر حتى يلتقط أنفاسه ، ثم يستسلم أخيرا ليعود يتراجع وينسحب إلى الخلف حتى يوقف حائط الكوبرى انسحابه ، ويستعمل معروف الإرغام حينئذ فيمسك بجلده بقوة ويغرز فيه الإبرة .. ويالها من لحظة روعت فيها بالغريب وقد انقلب شخصا آخر ، مجنونا ربما ، أو قطة تعانى من أقصى درجات الرعب على استعداد لأن تنقض وتغرز أنيابها وتنهش .. لحظة أعادت إلى ذاكرتى ما حدث للغريب عقب مصرع شلبى فعيناه فعلا كانتا قد اتسعتا بطريقة غير بشرية ، ونظراته قد أصبحت حمما ، والاصفرار لونه و لم يترك حتى أظافره وكأنه يرى ماردا هائلا يهم بالانقضاض عليه والفتك به .. لحظة بلغ من بشاعتها أن الغريب حين انتفض مستديرا لمعروف عقب انتهاء الحقنة .. استدار بطريقة شيطانية مرعوبة حتى خلت أنه يستدير ليطبق على رقبة الرجل ولا يتركه إلا جثة هامدة .. لحظة طالت وامتدت وارتسم خيالها على الماء المتموج الجارى قريبا منا كلوحة خالدة مهتزة للإنسان حين تقلبه أقصى درجات الرعب إلى وحش غاضب مخيف ..

* * *

وفى ساعة راحة من الألم ناقشته فى أمر وردة .. كان احتكاكى بها قد ازداد فى الفترة الأخيرة وازداد معه اشمئزازى منها حتى بدأ يتحول إلى اشمئزاز منه .. كنت أشكو له منها فيهز رأسه هزة من لا يبالى ولا يهمه الأمر .. و لم أكن أستطيع أن أهضم أن يصر رجل مجرب خبير مثله على الاستحواذ على امرأة مثلها لا تليق به ولا تقيم لسطوته حسابا .. كان راقدا ينش الذباب عن وجهه بمنشة من الخوص صنعتها له فأغلق عينيه ،

وأحسست أنه خجلان منى ومكسوف ولا يجد ما يقوله ليبرر موقفه .. وماذا يقول ؟.. ومن الواضح أنها لا تقيم لعلاقتها به وزنا ولا تحفل بطلباته ورسائله .. والمرة الوحيدة التى زارته فيها تحت الكوبرى كانت بإلحاح شديد منى ولأجل خاطرى أنا .. وبثمن آه لو عرفه الغريب .. أغلق عينيه طويلا ثم فتحهما فى النهاية ليقول لى إنه خلاص قد انتهى من أمرها إلى قرار وأنه سيطلقها ويدعها تذهب لحال سبيلها .. ولكنى من الطريقة التى قال بها « قراره » عرفت أنه قد يكون مخلص النية فعلا .. ولكن قراره هذا سيظل كلاما فى كلام ومع إيقاف التنفيذ ..

لماذا يصر إنسان كالغريب صاحب السطوة والنفوذ على الاحتفاظ بإنسانة كوردة ؟أهو الحب كما يقولون ؟أم لكى تظل كالشاهد الحى على عجز نفوذه وعلى أنه هو الآخر له حدوده مثل أى إنسان ؟

القرار فى الواقع جاء من ناحيتها هى حين ذهبت إليها فى اليوم التالى فلم أجدها ، وقال أهل العزبة إنها أخذت ملابسها وكل ما يخصها وذهبت ، إلى أين ؟ لا أحد يعرف .

وبحماس الصبية نقلت له النبأ غير عابئ بما قد يحدثه فيه ، ولم أعتقد للحظة أن سيكون للنبأ مثل هذا الواقع ، وأنى بعد ساعات سأجد فى عيون الغريب آخر ما يتصوره العقل .. دموعا حقيقية .

المهم .. كان الجرح قد قارب الشفاء ورائحته بدأت تحتمل ، والغريب تمالك نفسه بعض الشىء وأصبح فى استطاعته أن يتسلى فى النهار بالسنارة واصطياد السمك حين ظللت أدبر فى نفسى أمرا طول اليوم وأنتظر حلول الليل لأواجهه به. كنت قد ألقيت نظرة تأمل على حياتى

فوجدت أنى فعلت كمن رقص على السلم فلا هو صعد أو هبط ، ولا هو أصبح ابن ليل أو عاد إلى دنيا النهار . بكل تهور تركت حياتى وأهلى وانضممت للغريب أجرى وراء أحلامى فماذا فعلت بنفسى أكثر من أنى بددت حياتى الواقعة ، وبددت كذلك أحلامى ، ولم يعد لى سوى دور الخادم أو الصبى ؟ كنت قد وصلت إلى قرار ورحت انتظر على مضض اللحظة التى أعلنه فيها .

وأخيرا جدا وبعد لأى جاء الليل ولم يكد العشاء يولى والليل تتدعم أركانه حتى طلبت من الغريب أن يسمعنى . وأدرك بذكائه الفطرى أنى أعانى من أمر لا يحتمل فاستمع لى وطال إصغاؤه وتركنى أفضفض وسألنى فى النهاية عما أريد . وببساطة قلت له ما أريد .. قلت له إنى أريد منه أن يكون أمينا معى وأن ينفذ وعده ويحقق لى الأمنية التى دفعتنى لترك حياتى ووضع نفسى تحت أمره ، استمع لى أيضا ثم سألنى — وكأنه لا يعرف — ما أريده بالضبط . فقلت :

— ما انت عارف .. عايز اقتل .. .

— ما تقتل ..

— ما اعرفش إلا ما تعلمنى ..

— القتل مش عايز علام . اللى عايز يقتل بيقتل ..

هنا بدأت ألمح أنه سيعود إلى مراوغتى فاعتدلت أكثر ، وبلهجة جادة أعنى كل حرف فيها رحت أعيد قولى وأطلب منه أن يساعدنى على تحقيق أملى لأحسم موقفى وأنضم نهائيا له وأصبح ابن ليل بحق وحقيق . وإلا فمعنى هذا أنه يستصغر شأنى ويضحك على ويستبقينى لأقوم على ،

خدمته ..

وعض شفته السفلى تألما وأغلق عينيه ثم عاد يفتحهما ويقول :

ــ طيب .. عايز تبقى واد ابن ليل يعنى وتعمل حاجه ما يقدرش عليها أولاد الليل ؟.. اقتلنى .. أنا بقولك جد .. أحسن ما المأمور يقتلنى .. وانى خلاص زى ما قال سعد انى انتهيت .. اقتلنى ويبقى اسمك اللى قتلت الغريب ..

ولولا أنى أحسست أنه لا يهزل وإنما يتكلم جادا لثرت وتركته فى الحال ، و لم لا أقول أنى فكرت فى اقتراحه للحظة ؟

ولكنى هززت رأسى هزة يائس .. وسكت مغيظا لا أعرف ماذا أقول .

أما هو فقد ابتسم وطبطب على كتفى بغير خشونة ، وكأنه يطبطب على بيد وردة وقال :

ــ طيب .. ما تزعلش .. ح نخليك تقتل زى ما انت عايز وتاخذ الشهادة يا سيدى .. المدفع أهه .. وأول واحد ييجى ع الكوبرى سوا من الناحيادى أو الناحيادى .. اقتله .

وانتفضت واقفا من الفرحة انتفاضة خبطت رأسى فى « كمرة » الكوبرى الحديدية وكادت تفقدنى الوعى ، وهتفت والألم يعصف بى :

ــ بتتكلم جد ؟

قال :

ــ ما دام بتتكلم على الجد فالحكاية معدش فيها هزار .. أنى كنت مبسوط منك لأنك أفندى كده ومتعلم وبتفهم كأنك ابنى .. يمكن كان

نفسى انى أبقى زيك واللا يبقى ابنى زيك إنما ما دام انت عايز تبقى زيى أنى ومش عاجبك تبقى تلميذ ، فخلاص معدش هزار .. يا ح تقتل أول واحد يفوت .. يا ح اقتلك أنى .. وده مش كلام أفندية .

— ١٤ —

وهكذا تركنا مجلسنا تحت الكوبرى وزحفنا حتى بلغنا الحائط الذى يمتد من درابزينه ، والمدفع الإيطالى فى يدى وكلانا قابع فى وضع استعداد ، وعيوننا تخترق الظلمة إذ كان القمر لم يطلع بعد لنلمح أول القادمين .
وبهمس وبلهجة جديدة على أذنى تماما قال الغريب :

ـــ لما تشوفه انس نفسك خالص وبص له هوه .. وما تنشنش إلا اما يقرب .. عند الشجرة اللى هناك دى .. وساعة التنشين اكتم نفسك خالص وخلى النيشان على وسط صدره .. ولما تضبط النيشان اضرب على طول .. اوع تتردد لحسن يقتلك هو .. لازم تعمل حساب انه مسلح وانك ان ما أصبتوش ح يصيبك هو .. يا قاتل يا مقتول .. وإذا خفت فكر ان بينك وبينه حاجه .. فكر ان ده اللى قتل ابوك حتى ان ما كانش ابوك مات .. فكر تمام كده وآمن بحق وحقيق انه هو اللى قتله .. وإذا ما وقعش بعد الأولانيه .. التانيه على طول .. والتالته .. وحتى لو وقع غير النيشان واضرب فى المليان .

ولأول مرة فى حياتى أجد نفسى أستمع لدرس يلقى على وأنا متفتح

كلى لتلقيه ، وآذانى تسمع وأصابعى تفهم وأنفاسى تعى ما يجب عليها أن تفعله ، وروعة ما سيحدث قد طغت على واكتسحتنى .. وروعة ما يحدث تغرقنى بنشوتها ، فهأنذا وأخيرا أتلقى أسرار أولاد الليل ، وأتلقاها عن جدارة ، فلولا ثقة الغريب فى وفى قدراتى لما رضى أن أصبح تلميذه ، الغريب الرابض بجوارى وقد بدأت تطرق صوته وحركاته ملامح الغريب الآخر ، ملامح الغريب حين يقتل أو يهجم أو يقدم على أمر خطير . أما الشىء الذى لمحته وجعل العرق البارد ينبع من جسدى كله ورقبتى ويملأ بسريانه الملموس قناة ظهرى ، الشىء الذى رأيته وقلب نشوتى إلى رعب بارد لا رحمة فيه ولا هوادة ، فهو البلطة التى لمحت الغريب يطبق عليها بيمينه ويخفيها عنى بثيابه ، البلطة التى أطاحت برأس شلبى والتى تستعد قطعا للإطاحة برأسى إذا فشلت فيما أنا مقدم عليه .

فجأة أحسست وكأنى كنت أحيا طول الوقت بأحلامى فى واد وجسدى فى واد آخر ، وأنه قد آن الأوان .. أتت اللحظة لكى أنقل جسدى وكيانى لأرض أحلامى ، وأن نحلم شىء وأن ننقل أجسادنا إلى أحلامنا شىء آخر ، فما بالك إذا أصبحت حياتنا نفسهاتتوقف على هذه الخطوة ؟..

وقال الغريب :

— خد ..

كانت سيجارة ملفوفة وكنت أرفض أن أدخن أمامه ، ولكنى أخذتها بيد ثابتة وأشعلتها ومضينا ندخن ندا لند .. وأجبر نفسى على اعتقاد أنه تدخين ند لند ..

وقال الغريب :

ـــ بعد الحكاية ما تتم .. نمشى من هنا .

ثم صمت برهة وواجهنى بعينين فيهما لمعه وقال :

ـــ يمكن حظنا يبقى كويس ويطلع متريش .. على العموم بعد ما تخلص عليه تروح ومعاك المدفع تفتشه وتجيب أى حاجه تلقاها وتمشى .. واوعى تتلخبط ويقع منك انت حاجه وانت بتفتشه .

وهززت رأسى أطلب منه أن يطمئن ..

ومر الوقت بطيئا ونحن نمد أبصارنا بأكثر مما نستطيع علنا نلمح ذلك القادم المجهول ..

وطال انتظارنا وأعصابى تزداد توترا مع كل دقيقة منه حتى لم أعد فى النهاية أستطيع ، وهممت أن أقف أو أنفجر أو أصرخ لأخفف ما بى من بخار مضغوط ، ولكننى قبل أن أفعل وجدت يده الصغيرة تمتد إلى ذراعى وتضغط عليها ، ووجدته يقول :

ـــ الصبر .. طول بالك امال .. قلت لك انس روحك خالص .. انت لما بيعلموك ركوب العجل بيقولوا لك إيه ؟ مش بيقولوا بص لقدامك ، بص لبعيد ؟.. وانت اياك تبص لروحك .. تضيع .. خللى همك فى اللى جاى ..

وكأن كلماته تحفل بالسحر فقد وجدت الضغط يخف ، ووجدتنى أهدأ وأعود أنظر أمامى ..

وطلع القمر ومضى نوره الأول الذى يشبه نور الشروق ، وبدأت شعاعاته تبيض وقرصه الناقص يصعد قدما فى السماء حتى كاد

يتوسطها ، وكأنه « كلوب » علق من سقف الدنيا وكأنه شمس الليل أشرقت ، فقد وجدنا ليل الليل يغيب ونهار الليل يحل والظلمة الكاملة تستحيل إلى نور غير كامل ، والطريق الزراعى المؤدى إلى الكوبرى ، والطريق الممتد منه والزرع القريب والأشجار البعيدة .. وجدتها كلها تظهر نصف ظهور وتتضح نصف اتضاح ..

وطال تأملنا لكل ما حولنا ولكل ما حل بالكون من تغيير ، وكذلك طال ترقبنا لنلمح وسط هذا السكون الشامل حركة .. مجرد حركة ..

وأول ما حدث أن دق قلبى دفعة دقات متتابعة سريعة أعقبها خفوت وصمت وكأن لم يعد يصدر عنه صوت ، وأعقب هذا مباشرة صوت بعيد ساحق فى بعده . ولكنه كان يغنى ..

وعاد قلبى يطلق دقاته من جديد .

وخيل إلى أنى انتظرت عاما كاملا حتى ظهر فى أفق النهار القمرى صاحب الصوت . بدا أول الأمر كنقطة بيضاء ساكنة ثم بياض متحرك ، ثم كأن نصفه الأعلى أبيض والأسفل أسود ، ثم ظهر أنه رجل يمتطى دابة ويغنى .

وانتظرت أن يتكلم الغريب ولكن لم يصدر عنه شىء ، حتى خلت أنه ما رأى أو سمع .

وأيضا ما تكلم الغريب أو نطق .. عيناه كأنهما لضمتا إلى الرجل المتحرك بخيط ويدء لا تزال مستميتة على البلطة . ولا ينطق حتى حين التفت إليه طالبا النجدة .. طالبا كلمة ..

وعدت أنظر إلى الرجل من خلال العرق المملح الذى يسيل من جبهتى إلى عينى ويلسعها . ومسحت العرق ، وسددت فوهة المدفع ليصبح الرجل و « ذبابة » الفوهة وشق جهاز التنشين على خط مستقيم واحد ، وفى نيتى الا أبدأ فى إحكام التنشين والتسديد على منتصف الصدر تماما إلا حين يصير الرجل القادم بحذاء الشجرة .

ومن أجل هذا مضيت أتابع حركة الدابة بحركة يسيرة من الفوهة .. ورغما عنى رحت أتابع الموال الذى يغنيه الرجل .. لم يكن صوته جميلا أو يصلح للغناء .. ولكنه كان عاليا وقويا وكان يقول « يا ليل » وكأنما يستحلف الليل ويرجوه أن يمنع عنه شروره . ويا « عين » فأتصور أنه يبكى ويرثى نفسه وكأن مسعاه لدى الليل فشل . وكان الموال يتحدث عن بستان حبيبه وما فيه من مشمش ورمان ونرجس ، وكيف أنه سيدخله ويقطف من كل أثماره .. وبدأت أرى أن بينه وبين الدابة شيئا .. كان « زكيبة » لا بد أنها ملأى بالطحين ولا بد أنه تأخر فى « المكنة »، وكان الغريب لا يزال صامتا صمتا لم أر مثله ولا يمكن أن يستطيعه بشر ، صمتا بلغ من عمقه وصدقه أنه جعلنى أحس وكأنه غير موجود معى بالمرة ، وكأننى أواجه الموقف وحدى . الرجل المجهول أمامى والمدفع فى يدى ولا شىء سوى الليل معنا . ورغما عنى أحسست وكأن شيئا ثقيلا قد انزاح عن صدرى ، فقدأحسست أن باستطاعتى أن أتصرف بمطلق إرادتى وأنى حر لا يحد من حريتى وجود الغريب أو بلطته . لأول مرة بدأت أشعر أنى غير خائف أو مرغم .. وكلما اختلست النظر إلى الغريب ووجدته ساكنا سكون الموتى ازداد إيمانا بأنى ،

لا شريك لى فيما أفعله . وأنى سيد الموقف والمدفع معى والمفاجأة معى والليل هو الآخر معى .. لأول مرة أنفض عن نفسى رداء التلمذة وعقليتها وأحس أنى ابن ليل حقيقى وأنى قادر .

وبكل تلك الثقة التى غزتنى عدت أنظر إلى هدفى . كان الرجل قد اقترب حتى لم يعد بينه وبين الشجرة المعهودة سوى أمتار ، وكان صوته واضحا وألفاظ مواله ومعانيه منتظمة .. وربما الغناء الذى بدأه وهو خائف قد عمل عمله .. وجعله يحس بالونس والطمأنينة .. فغناؤه كان قد بدأ يحفل بالنشوة وكأنه يغنى للغناء ذاته ، ويقول ياليل مسبحاً بأنوسية الليل وجلاله ، ويا عين متحسرا على العين التى نامت وحرمت نفسها من جماله ..

وكان على أن أقتل هذا الرجل المنتشى بمواله وغنائه بعد أقل من دقيقة زمن . ففوهة المدفع تتحرك معه ، وعند الشجرة تماما سأحكم التصويب وأطلق الرصاصة .

وأقول كان على أن « أقتله » فقط لمجرد القول . فالقتيل ساعتها لم يعد له فى نظرى أى هالة أو بشاعة . كان قد أصبح شيئا عمليا بحتا . شيئا لن يكلفنى أكثر من مجرد كتم أنفاسى والتنشين وحركة صغيرة من سبابتى اليمنى أجذب بها الزناد .

واقترب الرجل كثيرا حتى لم يعد بينه وبين الشجرة سوى قصبة .

وكتمت أنفاسى ، وبكل ما أملك من قوة حاولت أن أحمل يدى برصاص الدنيا كله حتى تكف عن ارتجافتها الرقيقة ويظل الخط الواصل من منتصف الصدر إلى جهاز التنشين قائما ومستقيما .. وفى ثانية

تصورت أن أبى قتل فى نفس الليلة وأن هذا الرجل قتله وقادم لتوه من هناك ولا بد من قتله .. حركة واحدة من الزناد وينتهى كل شىء فأدخل عالم الليل من أرحب أبوابه .. حركة واحدة ، ضغطة صغيرة .

ولا أعرف ما حدث بعد هذا على وجه الدقة ..

كل ما أذكره هو ضوء القمر ، وجلباب الرجل الأبيض الزاهى البياض ، ومواله الذى بدا جميلا يكاد من جماله يوقف الطير على أشجارها تستمع ، والشعور بالأمان والونس الذى كان مسيطرا عليه والذى ظل مسيطرا عليه حتى وهو يحاذى الشجرة ويبدأ فى تجاوزها .. ربما لو كان قد خاف ، ربما لو كف عن غنائه أو شعر بالخطر ، ربما لو كنت قد آمنت إيمانا كاملا أنه قتل أبى ، ربما لو كان قد حدث شىء خارج عن إرادتى وإردته ، شىء خدش سياج التحريم الذى يحيطه ويتحرك معه ويتكفل بشل أى إنسان حوله عن أن يلحق به أذى ، ربما لو كان قد حدث شىء من هذا لتغير كل شىء .. ولتغير مجرى حياتى نفسه ، إذ لا أستطيع إلى الآن أن أعرف لماذا لم يتحرك إصبعى تلك الحركة الصغيرة الهينة ويضغط على الزناد ، وما سر هذا النداء الذى تصاعد من أعماقى ، من أعمق أعماقى ، من أقدامى وأصابع يدى وقمم شعرى .. نداء لم أسمعه قبلا و لم أكن أتصور وجوده و لم أعمل له حسابا ولا اعتقدت أننى — فى آخر لحظة — سيتصدى لى هاتف من داخل نفسى يقول لى : حرام .. كلمة نتداولها ونقولها للغير ببساطة ، ويقبلها الغير أو يرفضها ببساطة أيضا . أما أن أقولها أنا لنفسى وفى لحظة كتلك فهو ما حيرنى وما جعلنى إلى الآن أحتار ، وما أنبت العرق الغزير من كل مكان فى

جسدى ، وما جعله بحورا فى باطن يدى وباطن سبابتى بالذات .. تلك التى كان عليها أن تقوم بالعمل الحاسم فى المهمة ، عرق غزير لزج كاد ينزلق معه المدفع من قبضتى ويجعل سبابتى تنزلق على الزناد كلما أرادت أن تضغط ، وهو أيضا لا بد سبب انزلاق إرادتى كلما استجمعتها وقلت : الآن لأرد بها على النداء المتصاعد من داخلى يقول : حرام حرام ! نداء ألعنه وأتساءل عن مصدره وأستنكر أن تذيب كلمة كهذه كل طاقتى على الإرادة ، ويصل ما تحدثه من شلل إلى آخر عقلة فى إصبعى ..

نداء أدركت قرب النهاية مصدره .. كان الرجل مصدره .. كلما رأيته مطمئنا يغنى ويرفع عقيرته وكأنما الوجود كله ملكه أحسست أنه لا يضمر شرا ، ولا يتوقع شرا . وكلما سمعت كلماته وتعرفت عليها ووجدت لها معانى ، وكلما رأيت جلبابه الأبيض وعمامته ، والدقيق الذى طحنه ، أحسست أن المسافة بيننا تتلاشى ، وأنه يغنى لى مثلا أو يحيينى وأنه إنسان ، وأنه حرام .. حرام .. حرام .. كل غنائه وخبطاته بالعصا على ظهر دابته وهزات أرجله ورنات حنجرته ، دون أن يقصد هو أو يعى كانت تصلنى على هيئة نداء أمر واحد يقول : حرام حرام . بل تكاثرت النداءات فى النهاية إذ أن أى شىء كان يفعله كإنسان كان يطلق نداء حتى جلسته الآدمية المنتصبة فوق الدابة كانت تطلق نداء .. تكاثرت النداءات حتى وجدتها فى النهاية تصنع حوله سياجا لا يمكن اختراقه ، وكأنه أينما يتحرك تتحرك معه دائرة حرام واسعة لا بد أنها احتوتنى وشلتنى ، والتى بلغ من تأثيرها أنه حين أصبح قاب قوسين

أو أدنى من الكوبرى ورآنا وألقى السلام ، وجدت المدفع ينزلق من قبضتي ويسقط ، ووجدتنى أقول :

— سلام ورحمة الله ..

وحين حاذانا .. وقال معتذرا عن مروره علينا راكبا :

— دستوركم يا رجاله ..

وتصاعد من جانبى صوت كنت قد نسيته تماما يقول :

— دستورك معك .. اتفضل ..

• بدأت أتذكر على وجه التحديد المصير الذى ينتظرنى .. والعجيب أنى فعلت هذا بلا خوف وبلا مبالاة تامة .. كنت على استعداد لمقاومة الغريب إن هو حاول قتل الرجل وإنجاز ما فشلت فى إنجازه ، مقاومته حتى ولو اقتضى الأمر أن أفقد حياتى .

— ١٥ —

ولكن الغريب لم يقتلنى ، وأيضا لم يحاول قتل الرجل . وبدأت أتكلم وأحاول أن أشرح ما بدر منى أو على وجه أصح ما لم يبدر منى ، ولكنه وضع يده على كتفى وقال :

— مفيش ذاعى .. البلطة دى كنت مجهزها ليك صحيح ..

وسألته لماذا لم يستعملها ؟ وفوجئت به يقول إنه كان ينوى استعمالها حقيقة لو كنت قد أطلقت النار على الرجل وصرعته .. إجابة أذهلتنى ،

وجعلتنى أستمع للكلمات التى قالها بانتباه عظيم ، ولكنه على أية حال لم يتكلم كثيرا .. قال ما معناه إنه هو الغارق إلى أذنيه فى عالم الجريمة والقتل كان لا يمكن أن يسمح لى بأن أتردى فيه حتى لو أردت ، فلو كنت قد فعلتها لما كنت قد كففت أبدا عن فعلها ولأصبحت مثله ، ولعشت الحياة المؤلمة الرهيبة التى يحياها ، ولا ضطررت دفاعا عن حياتى لأن أجتث أعمارا وأيتم أولادا وأملأ الأرض بشرورى وآثامى ، أتعذب وأعذب الناس ، وأعاديهم إلى درجة الموت ويعادوننى إلى درجة البـغض ، لأصبحت فى النهاية ابن ليل غادر خئون كشلبى .. إذا تعلمت بشرف فقدت حياتى ، وإذا لم أشك فى كل الناس حتى أخلص النـاس .. ضعت .

— وإخص على العيشة اللى لا تأمن فيها الناس ولا الناس يأمنوا لك .. ولا تصدق حد ولا حد يصدقك ، ولا تخلص لحد ولا حد يخلص لك .. الموت أهون منها .. والمصيبة أنك فيها ما تقدرش تقتل روحك ، تقتل روحك ، تقتل كل الناس ولا تقتل روحك .. وعلشان كده كنت ح الحقك وارحمك واخلص عليك ، ياريت الاقى أنا حد يرحمنى ويغلبنى ويخلص علىّ .

وسكت برهة يتأمل القمر .. ثم قال وكأنما يحدث نفسه :

— وعلى أقل تقدير لو كنت قتلته كنت ح اعرف انك ما عدتش تنفع الواحد يأمن لك .. النفر لما بيقتل بيصبح زى الديبة ما عندهاش مانع تاكل ولادها ، بينسعر زى ما يكون عقر كلب مسعور ويبقى مالوش شغله الا انه يعض ويفضل يعض حتى صاحبه وصديقه .. وعلى أقل

تقدير كنت ح تبلغ عنى .

وسكت مرة أخرى وتناول منى المدفع وراح يتفحصه .. ثم استطرد :

— الظاهر انى لازم أفوق .. آنى ح اوديك فى داهيه معايه .. آنى عذبتك قوى .. وطول المدة دى كنت باتمنى انى أغمض وافتح ألاقينى أبوك والاقينى راجل طيب والاقيك ابنى .. إنما الظاهر أبوك الحقيقى أولى بك .. اصلب حيلك ..

كنت سادرا فى إصغائى حتى فاجأتنى كلماته الأخيرة ، فقد قالها بلهجة مغايرة تماما وبصوت حاسم باتر لا تشوبه ذرة تردد أو رحمة .. وحدقت فيه بعيون واسعة مدهوشة وبملامح صارمة جامدة قاسية لا تضطرب .. عاد يقول :

— فز قوم .. وما تبطلش جرى الا حدى بيتكم .

ودوى انفجار رهيب وفوق كتفى تماما لفحة هواء ساخن مضغوط كادت تقتلع أذنى ، وأفقت على نفسى وأنا أجرى .. ودوى انفجار بعيد آخر ، وفوق رأسى مرت كتلة الرصاص تغلى وتطش وتثقب الهواء .. ولكنى حتى وأنا مستمر فى انطلاقى جرؤت على إلقاء نظرة — كنت أعرف أنها الأخيرة — على الغريب .. وربما كان خداع بصر ، ولكنى شعرت وكأنى أنا الثابت وكأنه هو الذى يجرى ويتحرك .. بملامح بدت طاعنة فى الكبر ، وبأكتاف تنوء بما حملت ، وبقامة قصيرة مضت تغوص مع الليل وتختفى فى أعماقه ، وتنضم إلى كتله السوداء المتراجعة أمام كاشفات الفجر وشعاعاته .

« تمت »

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه
تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الدكتور يوسف إدريس :

(أ) مجموعات قصص قصيرة :

١ ــ أرخص ليالى .
٢ ــ جمهورية فرحات وقصة حب .
٣ ــ أليس كذلك .
٤ ــ قاع المدينة .
٥ ــ البطل .
٦ ــ حادثة شرف .
٧ ــ آخر الدنيا .
٨ ــ لغة الآى آى .
٩ ــ النداهة .
١٠ ــ بيت من لحم .
١١ ــ أنا سلطان قانون الوجود .

(ب) المسرحيات :

١٢ ــ ملك القطن وجمهورية فرحات .
١٣ ــ اللحظة الحرجة .
١٤ ــ الفرافير .
١٥ ــ المهزلة الأرضية .
١٦ ــ المخططين .
١٧ ــ الجنس الثالث .
١٨ ــ نحو مسرح عربى .
١٩ ــ البهلوان .

(جـ) روايات :

٢٠ ــ الحرام .
٢١ ــ العيب .
٢٢ ــ رجال وثيران .
٢٣ ــ العسكرى الأسود .
٢٤ ــ البيضاء .
٢٥ ــ بصراحة غير مطلقة .
٢٦ ــ اكتشاف قارة .
٢٧ ــ الارادة .
٢٨ ــ مفكرة د . يوسف إدريس (جزء أول)
٢٩ ــ مفكرة د . يوسف إدريس (جزء ثان)
٣٠ ــ جبرتى الستينات .

رقم الإيداع : ٥١٨١
الترقيم الدولى : ٣ ـــ ٤٦٨ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

